سلسلة الروح الجامعية (س ا ع ٢)

صفوة

إحياء الغزالي

(وهو بحث في الثقافة الروحية في كتاب احياء علوم الدين)

بقلم محمود علي قراعة

المحامي

١٣٥٣ هـ – ١٩٣٥ م

obeikandl.com

الإهداء

إلى أستاذنا العزيز أحمد أمين

أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب

ومؤلف (فجر الإسلام) و (ضحى الإسلام)

إلى عقلك العزيز وقلبك الكبير
وفؤادك الجميل وروحك الفياضة
الطاهرة الزكية ونفسك المطمئنة :
أهدي كتابا يتحدث عن الروح
وصلاتها ، والنواحي الجميلة وأذانها ،
ومعاني الجمال وطرب الروح بها ..
هدية قلب لقلب وروح لروح !! .

محمود علي قراعة

المحامي بمنشية البكري ـ مصر الجديدة

في ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٤

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تحية وبعد: فقد صادقنا ذا المال وذا الجمال وذا المنصب وذا العلم وذا الجاه، فلم نجد لذة أكبر من مصادقة الكتب، ولا وفاء أصدق من صحبتها. تقبل حيث نهجر، وتصفح حيث نهفو، وتصل حيث نقاطع، وتلذ حيث نتبرم بالحياة وشرورها، وتفي حيث يخون الصحب، وتحنو حيث يقسو الخليل، وتعطف حيث يتبرم الصديق، فهي في سرائنا وضرائنا، ملازمة لنا، مقيمة على ودنا، حافظة لعهدنا.

ومن هذه الكتب التي كنت أصحبها كلما أصابتني مصيبة روحية أو مادية، ولا زلت أهفو إليها كلما دعتني ذكرى ودادها «كتاب احياء علوم الدين للغزالي» فكنت ألقى في قراءته لذة وفي صحبته عزاء، فأطلت صحبتي معه وفنيت فيه، وأنا إذ أكتب عن ثقافته الروحية انما احدث عن هذه اللذه وأقوم بواجب وفاء هذه الصحبة، وكلي أمل أن اجيد الحديث عن لذته وأن أوفق للقيام بوفاء صحبته،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمود علي قراعه

العلم

١ — يرى الغزالى « أن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته ، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض ، وموته لازم ولكنه لايشعر به إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل احساسه ، كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح فى الحال وان كان واقعا . فاذا حط الموت عنه اعباء الدنيا ، أحس بهلاكه وتحسر تحسراً عظيما بما لاينفعه وذلك كاحساس الآمن من خوفه والمفيق من سكره بما أصابه من الجراحات فى حالة السكر أو الخوف » أى أن القلب الخالى من العلم مريض ولكن صاحبه لايشعر بهذا المرض لما شغل به من أمور الدنيا ، فاذا كشف الغطاء بأن خرج من الدنيا شعر بألم مرض الجهل ، لأن « الناس نيام اذا ماتوا انتبهوا » .

٢ — ويأتى الغزالى للتدليل على فضل العلم بشواهد عقلية خلاصتها : (ا) أن الفضيلة مأخوذة من

الفضل وهى الزيادة . فاذا تشارك شيئان فى امر واختص أحدهما بمزيد يقال فضله وله الفضل عليـــه مهما كانت زيادته فيما هو كمال الشيء ، فالعلم فضيلة فى ذاته وعلى الاطلاق من غير اضافة ، فانه وصف كمال الله سبحانه وتعالى ، وبه شرف الملائكة والانبياء إذ قال « شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط » (ب) الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم الى : ما يطلب لغيره (كالدراهم والدنانير) ، والى مايطلب لذاته (كالسعادة فى الآخرة ولذة النظر الى وجه الله تعالى) ، والى ما يطلب لغـيره ولذاته جميعاً (كسلامة البدن ، فى سلامتـه بعد للألم وتحقيق للتوصل الى المآرب) — وما يطلب لذاته أشرف وافضل ممـا يطلب لغيره ، والعـلم لذيذ فى نفسه لأنه ذريعة الى معرفة الله وأصـل السعادة فى الدنيـا والآخرة ، فهـو مطلوب لذاته (ج) تعلم العلم طلب للأفضل ، وتعليمه إفادة للافضل (د) المعـلم متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم ، وأشرف موجود على

الارض من جنس الانس ، وأشرف جزء من جواهر الانسان قلبه ؛ والمعلم يشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته الى القرب من الله عز وجل

٣ — ويقسم الغزالى العلم الى علم معاملة وعلم مكاشفة ، ويقول ان المعاملة التى تكلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك : فأول واجب عليه تعلم كلمتى الشهادة وفهم معناهما وهو قول (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) ، ولا يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الادلة ، بل يكفيه ان يصدق به ويعتقده جزما من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان ، فمن صدق وأقر فقد ادى واجب الوقت . اما الفعل فبتجدد وجوب الصلاة عليه اذا دخل عليه وقتها ، ووجوب تعلم الصوم اذا دخل عليه رمضان ، فان تجدد له مال عند بلوغه لزمه تعلم مايجب عليه من الزكاة ؛ فاذا دخل فى أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة الى علم الحج مع أن فعله على التراخى فلا

يكون تمامه على الفور ، ولكن ينبغي لعلماء الاسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة ، فاذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج .

وأما الترك فيجب تعلم علم ذلك بحسب مايتجدد من الحال وذلك يختلف بحال الشخص اذ لا يجب على الأبكم تعلم مايحرم من الكلام ، ولا على الأعمى تعلم مايحرم من النظر .

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب ، فيجب عملها بحسب الخواطر ، فان خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمتا الشهادة ، فيجب عليه تعلم مايتوصل به الى ازالة الشك ، وينبغي أن يبادر فى أن يلقى اليه الايمان بالجنة والنار والحشر حتى يؤمن به ويصدق ، وهو من تتمة كلمتى الشهادة .

٤ — ويرى الغزالى أن العلوم بالاضافة الى الفرض الذى نحن بصدده تنقسم الى شرعية وغير شرعية ، وان الشرعية مااستفيد من الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل اليه (مثل الحساب) ولا التجربة (مثل

بطلب) ولا السماع (مثل اللغة) . وقال ان العلوم التي ليست الشرعية تنقسم الى ماهو محمود والى ماهو مذموم والى ماهو مباح . فالمحمود مايرتبط به مصالح أمور الدنيا . وذلك ينقسم الى ماهو فرض كفاية والى ماهو فضيلة وليس بفريضة : أما فرض الكفاية فهو كل علم لايستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا (كالطب اذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فانه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما ، وكذلك أصول الصناعات كالفلاحة والحياكة والسياسة من فروض الكفايات) لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد ، واذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . وأما مايعد فضيلة لافريضة فبكالتعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج اليه . وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات . وأما المباح منه فالعلم بالاشعار التى لاسخف فيها وتواريخ الاخبار وما يجرى مجراه .

obeikandi.com

أما العلوم الشرعية فهي محمودة كلها ، ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة ، فتنقسم الى المحمودة والمذمومة ، أما المحمودة فأصولها أربعة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، واجماع الأمة ، وآثار الصحابة رضي الله عنهم . وفروعها مافهم من هذه الاصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره (كما فهم من قوله عليه السلام : « لا يقضي القاضي وهو غضبان » أنه لا يقضي إذا كان حاقنا أو جائعا أو متألما بمرض) ، وهذا على ضربين أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والثاني ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة وما هو مرضي عند الله تعالى وما هو مكروه . ومقدمات الأصول هي التي تجري منها مجرى الآلات كتعلم اللغة والنحو وكعلم كتابة الخط .

وأما متممات الاصول فذلك في علم القرآن وينقسم الى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف ، والى ما

يتعلق بالمعنى كالتفسير ، وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر وكيفية استعمال البعض منه مع البعض ، وهو العلم الذى يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضاً .

وعلم طريق الآخرة قسمان : علم مكاشفة وعلم معاملة : فعلم المكاشفة (علم الباطن) وهو عبارة عن نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كأن يسمع من قبل اسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وتعالى وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله وبحكمه فى خلق الدنيا والآخرة .

فالغزالى يعنى بعلم طريق الآخرة « كيفية تصقيل مرآة القلب عن الخبائث التى هى حجاب عن الله تعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله ، وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والاقتداء بالأنبياء صلوات الله عليهم فى جميع أحوالهم » ويقول أن هذا هو العلم الخفى الذى أراده

صلى الله عليه وسلم بقوله « إن من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، فاذا نطقوا به لم يجهله الا أهل الاغترار بالله تعالى » .

أما علم المعاملة فهو علم أحوال القلب مايحمد منها وما يذم ، وتقوية الاحوال المحمودة بمعرفة حقائقها وحدودها وأسبابها التى بها تكتسب وثمرتها وعلامتها ومعالجة ماضعف منها .

وأما الفلسفة فليست علما بذاتها بل هى أربعة أجزاء (أحدها) الهندسة والحساب وهما مباحان ولايمنع عنهما الا من يخاف عليه أن يتجاوز بهما الى علوم مذمومة و(ثانيها) المنطق وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ووجه الحد وشروطه ، وهما داخلان فى علم الكلام و (ثالثها) الالهيات وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ، وهو داخل فى علم الكلام أيضا . والفلسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة

و(رابعها) الطبيعيات

وبعضها مخالف للشرع والدين الحق فهو جهل وليس بعلم ، وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها .

٥ — ويأتي لنا الغزالي ببيان علة ذم العلم المذموم ويورد قول عيسى عليه السلام « ما أكثر الشجر وليس كلها بمثمر ، وما أكثر الثمر وليس كلها بطيب ، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع » . ويقول ان العلم لا يذم لعينه وانما يذم في حق العباد ولأحد أسباب ثلاثة : (الاول) أن يكون مؤدياً الى ضرر اما لصاحبه أو لغيره (كما يذم علم السحر والطلسمات) . (الثاني) أن يكون مضرا بصاحبه في غالب الأمر (كعلم النجوم اذ هو قسمان : قسم حسابي نطق القرآن به فدل على أن مسير الشمس والقمر محسوب اذ قال عز وجل « الشمس والقمر بحسبان » . « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » . وقسم يرجع الى الاستدلال على الحوادث بالأسباب ، وهذا

قد زجر عنه الشرع من ثلاثة أوجه (١) أنه مضر بأكثر الخلق اذ يبقى القلب ملتفتا الى الكواكب ويرى الخير والشر محذورا أو مرجوا من جهتها ، ويغفل عن أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله سبحانه وتعالى

(٢) أن أحكام النجوم

(أن بعض الآثار تحدث عقيب سيرها) تخمين محض لا يدرك فى حق آحاد الاشخاص لا يقينا ولا ظنا ، فالحكم به حكم بجهل لا بعلم (٣) أنه لا فائدة فيه

(الثالث) الخوض فى

علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم ، فهو مذموم فى حقه (كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها وخفيها قبل جليها وكالبحث عن الاسرار الالهية اذ تطلع الفلاسفة والمتكلمون اليها ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها الا الانبياء والاولياء

٦ — ويحدثنا الغزالى عن بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة فيقول أنها بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام :

(ا) قسم مذموم منه قليله

وكثيره وهو ما لا فائدة فيه فى دين ولا دنيا إذ فيه ضرر يغلب نفعه (كعلم السحر) (ب) قسم محمود إلى أقصى غايات الاستقصاء ، وهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته فى خلقه وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا

(حـ) قسم لا يحمد منه إلا مقدار مخصوص وهو قسم العلوم التى أوردناها فى فروض الكفايات : فان فى كل علم منها اقتصاراً وهو الاقل ، واقتصاداً وهو الوسط ، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد ولا مرد له إلى آخر العمر . ويقول « يجب مراعاة التدرج فى فروض الكفايات ، فلا يستغرق عمرك فى فن واحد منها طلبا للاستقصاء ، فان العلم كثير والعمر قصير : وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها ، وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغى أن ينسى فيه المطلوب وتستكثر منه .

٧ — فالغزالى يرى أن نتعلم العلم وأن يأخذ كل منا منه بالقدر الذى ينفعه فى دينه ودنياه وأن يبتعد عن

العلوم التى لاخير فيها لأنها مضيعة للوقت أولانها مزعزعة لليقين عابثة بايمان القلوب ؛ وأن يقدر كل منا نفسه فى العالم وحده مع الله وبين يديه الموت والعرض والحساب والجنة والنار ، ويتأمل فيما يعنيه مما بين يديه ويترك ماسواه .

والغزالى لهذا يرى العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن الى الله تعالى ، ويقول « ان نور البصيرة يلاحظ المعانى لا الصورة » فيجب على المتعلم تقديم طهارة النفس عن رذائل الاخلاق ومذموم الاوصاف لان « الصور فى هذا العالم غالبة على المعانى والمعانى باطنة فيها ، وفى الآخرة تتبع الصور المعانى وتغلب المعانى ، فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية » ، ولكى تكون هذه الصورة المعنوية بالغة مبلغها من الكمال يرى أن يعرف المتعلم السبب الذى به يدرك أشرف العلوم ويعلم نسبة العلوم الى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره و « القلب تلك اللطيفة الربانية هى الساعية الى قرب الرب لانها من امر الرب فمنه مصدرها واليه مرجعها ، وأما البدن فمطيتها التى

تركيبها وتسعى بواسطتها فيجب المحافظة على علم سلامة البدن ومساعدة أسباب الصحة بالاجتماع والتظاهر والتعاون ليصل الى عالم القلب براحة المطية وتهيئة الاسباب لها »، وأن يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفى المآل القرب من الله سبحانه وتعالى والترقى الى جوار الملأ الاعلى والملائكة والمقربين . ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ، وأن يقلل المتعلم علائقه من الاشتغال بالدنيا لانه « مهما توزعت الفكرة ، قصرت عن درك الحقائق » ، وأن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم ، وان يكون ذا قلب حاضر بأن يقبل العلم فهماً مصغياً فرحاً ، وان يحترز فى مبدأ الامر عن الاصغاء إلى اختلاف الناس سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة « فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الادراك والاطلاع » . بل ينبغى ان يتقن اولا مذهب أستاذه ثم يصغى بعد ذلك للمذاهب والشبه . ويجب أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم

المحمودة ولانوعا من أنواعه الا ونظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ، فان ساعده العمر طلب التبحر فيه والا اشتغل بالأهم منه واستوفاه . ويجب أن لايخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق الى بعض .

٨ — ويرى الغزالى أن وظائف المرشد المعلم الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه . ويقول « كما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد ، التحاب والتوادد ، ولايكون إلا كذلك ان كان مقصدهم الآخرة ، ولايكون الا التنافر والتباغض ان كان مقصدهم الدنيا » . فواجب المعلم اعتبار المتعلمين أبناءه واخوته واخوانه ، وواجبه أن أن يحبهم ويرشدهم وأن يفهم أن الصلة بينه وبينهم صلة روحية قبل أن تكون مادية ، وهو بهذا الحب الروحى يجب أن لا « يطلب على افادة العلم أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولاشكراً بل يعلم لوجه الله تعالى وطلبا للتقرب اليه ، ولا يرى لنفسه

منة عليهم – وان كانت المنة لازمة عليهم – بل يرى الفضل لهم اذ هذبوا قلوبهم » . وهذا الذى يراه الغزالى هو الاصل فى الصلة بين المعلم والمتعلم، ولكن لان النفوس البشرية ضعيفة لا يجد أكثرها ما يحمل على خدمة العلم للعلم ، كان للمعلمين – لا سيما للعلوم الدنيوية – أجر ، الاصل فيه أن يفى بحاجاتهم وأن يظهروا به امام الناس بالمظهر اللائق بهم وأن يستغنوا عن الناس من الوجهة المادية فيحفظوا بذلك كرامتهم وكرامة العلم . ولكن اذا نظرنا للصلة بين المعلم والمتعلم فى دور التعليم المصرية ، لوجدناها صلة مادية تدعو للالم وتبعث على التحسر ، ففى ابتدائى وثانوى – سواء فى المعاهد الدينية أو فى مدارس وزارة المعارف – نجد غالب الصلة بين التلميذ وأستاذه صلة تنافر وتباغض ، التلميذ يخاف من استاذه ويخشاه ولكن لا يحبه ، والاستاذ لا يعطف على تلميذه وإن عطف عليه فلحاجة فى نفس يعقوب (أقربهـــا الى الاذهان أن يكون هذا ابن صديق أو قريب أو عظيم أو أنه مدرسه الشخصى فى المنزل يتقاضى منه اجرا زيادة عن

اجره) ، ومن دواعى الأسف ان تكون هذه المادية الحقيرة هى عين الصلة بين الاستاذ وتلميذه فى المدارس العليا — حتى فى كليات الأزهر وكليات الجامعة المصرية — يحترم الطالب استاذه لانهما سيلتقيان فى الامتحان الشفهى فهو يتقرب اليه بما قد يصل الى حد التزلف والتملق المزرى لوهم انه سينفعه بدرجة أودرجتين أو درجات او على الاقل بتسهيل الاسئلة عليه ، وهو لهذا الوهم يشرب مرارة جهل استاذه ولا يستطيع ان يناقشه خوف أن يحمل أستاذه حب المناقشة لرغبة فى التعجيز ، ولا يجرأ على ان يخطئه فى نظرية علمية أو أن ينقد اسلوب القاء او يبدى جهلا فاضحا ظاهراً من استاذه أو يتحدث عن ضعف ظاهر بين منه ، خوف يوم لقاء الامتحان الذى يتوعد به الاساتذة الطلبة أو يتوهم الطلبة أنه يوم الوعيد . وكان الاحرى أن تكون هناك صلة قلبية بين الاستاذ وتلميذه ، صلة حب خالية من الاغراض ، يعلم الاستاذ أنه امين فلا يدع كما يقول الغزالى من نصح المتعلم شيئاً » وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة

قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ، ثم ينبهه على ان الغرض بطلب العلوم هو القرب من الله تعالى » وكل العلوم هذا هو غرضها سواء كان مباشرا أو غير مباشر ، حتى العلوم الدنيوية التى يريد بها متعلمها كسب العيش هى علوم يراد بها ان تهيئه لعمل معين او حرفة معينة او وظيفة معينة يستغنى بها عن سؤال اللئيم ويقيم بأجرها أوده ويصرفه على حاجياته المادية فيخلص تفكيره من الامور المادية وبذا يعنى بالروحية ، وكلما قويت عنايته بها كلما قرب من الله تعالى . يجب أن يعلم الاستاذ انه أمين فيجب كما يقول الغزالى « أن يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الاصرار ، ولأن التعريض أيضا يميل النفوس الفاضلة والاذهان الذكية الى استنباط معانيه ، فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة فى العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته »

ومن دواعى هذه الامانة « أن المتكفل ببعض العلوم ينبغى ان لا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه . بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره وان كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة » و « ان يقتصر المتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى اليه ما لا يبلغه عقله فينفره ، أو يخبط عليه عقله » و « ان يلقى الى المتعلم القاصر ، الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه » .

هذه هى أمانة الاستاذ العلمية ، اما أمانته الخلقية فهى حبه لتلميذه حب مجرد عن الغرض المادى، مقصود به إفادته العلمية ، لانه بهذا الحب يحببه ، لان بالعطف يعطف الانسان او يحمل على العطف ، ويكون سبب الحب هنا هو تلك الصلة الروحية التى تربط بين اثنين يسعيان لغرض واحد شريف هو الوصول الى الحقيقة والبحث عنها أنى وجدت . ويرى الغزالى فوق هذا الحب لفائدة العلم « ان لا يطلب العالم الدنيا بعلمه بل يطلب الآخرة ويؤثرها ،

وأن يكون غير مائل الى الترفه فى المطعم والمشرب والتنعم فى الملبس والتجمل فى الاثاث والمسكن بل يؤثر الاقتصاد فى جميع ذلك » و « ان يكون مستقصيا عن السلاطين فلا يدخل عليهم البتة ما دام يجد الى الفرار عنهم سبيلا ، بل ينبغى أن يحترز عن مخالطتهم وان جاءوا اليه » و « أن لا يكون مسارعا الى الفتيا بل يكون متوقفا ومحترزا ما وجد الى الخلاص سبيلا ، فان سئل عما يعلمه تحقيقا (بنص كتاب الله أو بنص حديث أو اجماع أو قياس جلى فى العلوم الدينية) أفتى ، وان سئل عما يشك فيه قال لا أدرى ؛ وان سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره ان كان فى غيره غنية » .

٩ — والغزالى كما رأينا يدعو تلامذة العلم الواحد الى التحاب والتواد والتعاون ؛ ويحدثنا كمثال لما يراه فى التعاون العلمى عن المناظرة ، فيقول : ان الغرض من المناظرة ، المباحثة عن الحق ليتضح « فان الحق مطلوب ؛ والتعاون على النظر فى العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر . والتعاون

على طلب الحق من الدين » . ويرى أن لايشتغل بطلب الحق عن طريق المناظرة (وهو من فروض الكفايات) من لم يتفرغ من فروض الاعيان ، وأن لايرى فرض كفاية أهم من المناظرة (فان رأى ماهو أهم وفعل غيره ، عصى بفعله) وأن يكون المناظر مجتهدا يفتى برأيه ، وأن لايناظر الا فى مسئلة واقعة أو قريبة الوقوع غالبا ، وأن تكون المناظرة فى الخلوة أحب اليه وأهم من المحافل « فان الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق ، وفى حضور الجمع مايحرك دواعى الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقا كان أو مبطلا » ، وأن يكون فى طلب الحق كناشد ضالة لايفرق بين ان تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معينا لاخصما ويشكره اذا عرفه بالخطأ وأظهر له الحق ، وأن لايمنع معينه فى النظر من الانتقال من دليل الى دليل ومن أشكال الى أشكال ، ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيما له وعليه كقوله هذا لايلزمني ذكره وهذا يناقض كلامك

الاول فلا يقبل منك (فان الرجوع الى الحق مناقض للباطل ويجب قبوله) . ولذلك يشترط الغزالى فى المناظرة أن يناظر المناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم ، ويقول أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والافحام واظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس والمباراة واستمالة وجوه الناس ، هى منبع جميع الاخلاق المذمومة عندالله ؛ المحمودة عند عدو الله ابليس ، ونسبتها الى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر الى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة .

١٠ — ويرى الغزالى ان يكون أكثر اهتمام المعلم بعلم الباطن ، ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه ، وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة « فان المجاهدة تفضى الى المشاهدة ، ودقائق علوم القلوب تنفجر منها ينابيع الحكمة من القلب ، وأما الكتب والتعليم فلا تفى بذلك » .

١١ – ويرى الغزالى أنه يجب أن يكون المعلم شديد العناية بتقوية اليقين ، فان اليقين هو رأس مال الدين. ويقول أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين : أما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك ، أذميل النفس الى التصديق بالشيء ، له أربع مقامات : (١) الشك وهو أن يعتدل التصديق والتكذيب (٢) الظن وهو أن تميل نفسك الى أحد الأمرين مع الشعور بامكان نقيضه ، ولكنه امكان لا يمنع ترجيح الاول لتجويز اختفاء أمر مساو لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه (٣) اعتقاد مقارب لليقين ، وهو أن تميل النفس الى التصديق بشيء حيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ، ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ، ولكن ليس ذلك عن معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والاصغاء الى التشكيك والتجويز ، اتسعت نفسه للتجويز (ومثل هذا الاعتقاد اعتقاد العوام فى الشرعيات كلها اذا رسخ فى نفوسهم بمجرد السماع) (٤) اليقين

وهو المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه : فاذا امتنع وجود الشك وامكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء سواء حصل بنظر أو بحس أو بغريزة العقل أو بتواتر أو بتجربة أو بدليل ؛ ويرى الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء أنه لا يلتفت فيه الى اعتبار التجويز والشك ، بل الى استيلائه وغلبته على العقل . فمهما مالت النفس الى التصديق بشىء ، وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف فى النفس بالتجويز والمنع ، سمى ذلك يقينا

فعلى اصطلاح المتكلمين لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت فى نفى الشك ، وكل علم لا شك فيه يسمى يقينا عندهم ، وعلى اصطلاح الفقهاء والمتصوفة يوصف اليقين بالضعف والقوة ؛ ويرى الغزالى أن من شأن علماء الآخرة صرف العناية الى تقوية اليقين بالمعنيين جميعاً ، وهو نفى الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها . ويقول أن درجات اليقين فى

القوة والضعف لا تتناهى ، وتفاوت الخلق والاستعداد للموت تفاوت اليقين بهذه المعانى ، أما التفاوت بالخفاء والجلاء فلا ينكر أيضا ، وكذا فيما يتطرق اليه التجويز وفيما انتفى الشك عنه ؛ فانك تدرك التفرقة بين تصديقك بوجود أمرين لا تشك فيهما إذ مستندهما جميعاً التواتر ، ولكن ترى الاول أجلى وأوضح فى قلبك من الثانى ، لان السبب فى أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين مثلا . وكذلك ليس وضوح مالاح بدليل كوضوح مالاح بالأدلة الكثيرة مع تساويهما فى نفى الشك . وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين كما يقال فلان أكثر علماً من فلان أى معلوماته أكثر ، ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين فى جميع ما ورد الشرع به وقد يكون قوى اليقين فى بعضه .

١٣ — ويرى الغزالى أن العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، وقد سماه الله نورا فى قوله تعالى « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة » وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة فقال تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحا

من أمرنا » وقال سبحانه « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس » ؛ وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله « يخرجهم من الظلمات الى النور ».

ويقول أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان : (١) الوصف الذي يفارق الانسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الفكرية : فالعقل غريزة يتهيأ بها ادراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لادراك الأشياء، وهذا هو الاس والمنبع (٢) هي العلوم الضرورية التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات (وهو أقرب الى المنبع، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد). (٣) علوم تستفاد من التجارب بمجاري الاحوال، (وهذا فرع الاول

والثانى اذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد التجارب) فان من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال أنه عاقل فى العادة ، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال أنه غبى غر جاهل . (٤) أن تنتهى قوة تلك الغريزة الى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة ويقهرها ، فاذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلا من حيث أن اقدامه واحجامه بحسب مايقتضيه النظر فى العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة .

ويقول الغزالى ان الغريزة والعلوم الضرورية بالطبع ، والتجارب وثمرتها الأخيرة وغايتها القصوى فى معرفة عواقب الأمور بالاكتساب ، وأن الناس يختلفون فى تفاوت العقل ، والتفاوت يتطرق الى الاقسام الأربعة سوى القسم الثانى وهو العلم الضرورى (فان من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد ، عرف أيضا استحالة كون الجسم فى مكانين وكون الشىء الواحد قديما وحادثا ، وكل ذلك يدركه محققا من غير شك) وأما الاقسام الثلاثة فالتفاوت

يتطرق اليها ؛ أما القسم الرابع فلا يخفى تفاوت الناس فيه ؛ بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه . وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة (اذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض) ولكن غير مقصور عليه (فان الشاب قد يعجز عن ترك الزنا ، واذا كبر وتم عقله قدر عليه ، وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لاضعفا) ، وقد تكون نسبة التفاوت فى العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة (ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة ؛ وقد لايقدر من يساويه فى العقل على ذلك إذا لم يكن طبيباً وان كان يعتقد على الجملة فيه مضرة ؛ ولكن إذا كان علم الطبيب أتم ؛ كان خوفه أشد) ؛ فان كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع الى تفاوت العقل ، وان كان من جهة العلم فهو عقل لانه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية اليه ، وقد يكون بمجرد التفاوت فى غريزة العقل (فانها اذا قويت كان قمعها للشهوة لا محالة أشد) . وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب ،

فتفاوت الناس فيهـا لاينكر ، فانهم يتفاوتون بكثرة الاصـابة وسرعة الادراك ، ويكون سببه إما تفاوتا فى الغريزة واما تفاوتا فى الممارسة «فالتفاوت فى الغريزة لا سبيل الى جحده ، فانه مثل نور يشرق على النفس ومبادىء اشراقه عند سن التمييز ثم لايزال ينمو ويزداد نموا خفى التدريج الى أن يتكامل بقرب الاربعين سنة ، وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر ، وانقسام الناس الى من يتنبه من نفسه ويفهم والى من لايفهم الا بتنبيه وتعليم والى من لاينفعه التعليم أيضا ولا التنبيه كانقسام الارض الى مايجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيونا والى مايحتاج الى الحفر ليخرج الى القنوات والى مالا ينفع فيه الحفر وهو اليابس» .

ويقول الغزالى عند شرحه عجائب القلب أن العقل مشترك لمعان مختلفة ، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان : أحدهما أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم وقد يطلق

ويراد به محل الادراك أعني المدرك .

١٣ — ويرى الغزالى أن ما اتصل بالعقيدة ينبغي أن يقدم الى الصبي في أول نشوئه ليحفظه حفظا ؛ ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئا فشيئا ؛ فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والايقان والتصديق ؛ وذلك مايحصل في الصبي بغير برهان ، وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد والتقليد المحض ، وهو غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معني أنه يقبل الازالة بنقيضه لو ألقي اليه . ولذا يقول أنه لابد من تقويته واثباته في نفس الصبي والعامى حتى يترسخ ولا يتزلزل ، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها وبما يسرى اليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيآتهم في الخضوع لله عز وجل والاستكانة له ، فيكون أول التلقين كالقاء بذر في الصدر ، وتكون هذه الاسباب كالسقى والتربية له حتى

ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » .

أى أن الغزالى يرى وجوب تلقين الصغير والعامى العقيدة الصحيحة وتقويتها بالتقليد وتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه والاشتغال بوظائف العبادات ، ولذا يرى أن علم الكلام حرام بالنسبة لهؤلاء لانه مثير للشبهات محرك للعقائد مزيل لها عن الجزم والتصميم ، وذلك مما يحصل فى الابتداء ، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ويختلف فيه الاشخاص ، فهذا ضرره فى الاعتقاد الحق ، وله ضرر آخر فى تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيته فى صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الاصرار عليه ، وهذا الضرر بواسطة التعصب الذى يثور من الجدل .

ولكن الغزالى مع ذلك يرى أن لعلم الكلام منفعة واحدة وهى حراسة العقيدة على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل « فان العامى ضعيف يستفزه جدل المبتدع وان كان فاسدا ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه » ،

ويرى أنه اذا وقعت الاحاطة بضرر هـذا العلم ومنفعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق فى استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا فى موضعه فى وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة. فيقول أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التى اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الذى ذكرناه « فان تعليمهم الكلام ضرر محض فى حقهم إذ ربما يثير لهم شكا ويزلزل عليهم الاعتقاد : ولا يمكن القيام بعد ذلك بالاصلاح » : وأما العامى المعتقد للبدعة فينبغى أن يدعى الى الحق « بالتلطف لا بالتعصب : وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر فى القلب : القريب من سياق أدلة القرآن والحديث : الممزوج بفن من الوعظ والتحذير ، فان ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين » .

ويرى ان استقصاء الجدل انما ينفع فى موضع واحد : وهو أن يفرض عامى اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه ، فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود الى اعتقاد الحق « وذلك فيمن ظهر له الانس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات

العامية ، فقد انتهى هـذا الى حالة لا يشفيه منها الا دواء الجدل ، فجاز أن يلقى اليه » . وفى البلاد التى تقل فيها البدعة ولا تختلف المذاهب يرى أنه يجب عدم التعرض للادلة ، مع التربص لوقوع شبهة فان وقعت ذكر بقـدر الحاجة . فالغزالى يرى اذن أن العالم بعلم الكلام ينبغى أن يخصص بتعليم هذا العلم المتجرد للعلم والحرص عليه « لان المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وازالة الشكوك اذا عرضت » ومن توفر فيه الذكاء والفطنة والفصاحة وفى طبعه الصلاح والديانة والتقوى ، ولم تكن الشهوات غالبة عليه .

١٤ — والغزالى يريد بهذا كله أن يشير الى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار ، وبعضها جلى يبدو أولا وبعضها خفى يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافى والسر الخالى عن كل شىء من اشغال الدنيا سوى المطلوب.

ويقول ان الاسرار الخفية التى يختص المقربون بادراكها ولا يشاركهم الاكثرون فى علمها ويمتنعون عن افشائها اليهم ، ترجع الى خمسة أقسام : (١) أن يكون الشىء فى

نفسه دقيقا تكل أكثر الافهام عن دركه فيختص بدركه الخواص ؛ وعليهم أن لايفشوه الى غير أهله ؛ ومن جملته الروح وبعض صفات الله تعالى .

(٢) ماهو مفهوم فى نفسه لايكل الفهم عنه ؛ ولكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ولا يضر بالانبياء والصديقين : فلايبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرا ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش ، فالكفر والزنا والمعاصى والشرور كله بقضاء الله تعالى وارادته ومشيئته ، حق فى نفسه ؛ وقد أضر سماعه بقوم اذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ونقيض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم ؛ وكذلك سر القدر ؛ ولو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزا اذ تقصر أفهامهم عن ادراك مايزيل هذا الوهم عنهم .

(٣) أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ؛ ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه فى قلب المستمع أغلب لان مصلحته فى ذلك : وانما يعرف هذا السر

على خلاف الظاهر اما بدليل عقلى أو شرعى ، أما العقلى فان يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » ، فعلم أنها كناية عن القدرة التى هى سر الاصابع وروحها الخفى . وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون اجراؤه على الظاهر ممكنا ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر . (٤) أن يدرك الانسان الشىء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملابسا له فيتفاوت العامان ويكون الاول كالقشر الظاهر والثانى كاللباب الباطن . (٥) أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال ، فالقاصر بفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا ، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه : وهذا كقوله تعالى « ثم استوى الى السماء وهى دخان ، فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين » فالبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه أنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين الى التسخير .

تقسيم البحث وتمهيده

١٥ — قسم الغزالى كتابه (احياء علوم الدين) الى أربعة أجزاء : ربع العبادات ، ربع العادات ، ربع المهلكات ، وربع المنجيات ؛ ولكنا وبحثنا قاصر على الثقافة الروحية فى هذا الكتاب سنتبع تقسيما يتلاءم مع البحث بعد تمهيد حديث الغزالى عن العلم ؛ ولذا سيكون البحث فى ثلاثة أبواب : مابينك وبين الله ، ما بينك وبين الناس ، مابينك وبين نفسك ؛ وسيقسم كل باب الى عدة فصول وكل فصل الى عدة بنود وكل بند الى جزئيات حتى يسهل البحث وحتى نستطيع أن نأتى بخلاصة وافية للحديث عن الثقافة الروحية فى هذا الكتاب الجليل .

على أنا يجب أن نلاحظ هذه الصلة القوية التى تربط بين أبواب البحث ، فالقلب قلب وصفاته هى صفاته فيما بينك وبين خالقك وبينك وبين الناس وبينك وبين نفسك ، اذا طهر فطهارته مشعرة باللذة فى جميع هذه الصلات مع فوارق لاتخرج عن أن تكون فى الكم والكيف فى قوة الصلة ، كذلك قل عن الصلة

بينك وبين الله اذ أنها اذا قويت واذا كنت له نعم العبد ، فانها لاشك معبرة عما بينك وبين الناس وبينك وبين نفسك ، لانه لن يعمر مابينك وبين الله الا اذا عمر مابينك وبين الناس وما بينك وبين نفسك . ولانك اذا أحببت الله والناس ستكون مطمئنا ذا قلب عامر بالايمان خفاق بالحب .

١٦ — ويقول الغزالى أن القلب يطلق لمعنيين : أحدهما اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف ، وفى ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه . والمعني الثانى هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتعلقه بالقلب الجسمانى يضاهى تعلق الاعراض بالاجسام والاوصاف بالموصوفات . والروح أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى فينتشر بواسطة العروق الضوارب الى سائر أجزاء البدن ويجرى فى البدن ويفيض أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها . والمعني الثانى هو

اللطيفة العالمة المدركة من الانسان وهو الذى أراده الله تعالى بقوله « قل الروح من أمر ربى » .

والنفس هو أيضا مشترك بين معان ويتعلق بغرضنا منه معنيان : أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الانسان ، واليه الاشارة بقوله عليه السلام « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » والمعنى الثانى هو اللطيفة التى هى الانسان بالحقيقة وهى نفس الانسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فهى النفس المطمئنة اذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات ، والنفس اللوامة اذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها ، والنفس الامارة بالسوء ان تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان .

١٧ — ويقول الغزالى أن للقلب جندين جند يرى بالابصار وهى سائر الاعضاء الظاهرة والباطنة ، وقد خلقت مجبولة على طاعته لاتستطيع له خلافا ولا عليه تمردا) وجند

باطنة لا ترى بالبصائر وتحصرها ثلاثة أصناف : صنف باعث (قد يعبر عنه بالارادة) ومستحث اما الى جلب النافع الموافق (كالشهوة) وإما الى دفع الضار المنافى (كالغضب) والثانى القدرة وهو المحرك للاعضاء الى تحصيل هذه المقاصد، والثالث (الادراك والعلم) وهو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسيس، وهو قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس.

ويقول الغزالى : أن مع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة (وهى الاعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التى أعدت آلات لهذه الجنود) ؛ وهذ الصنف الثالث ينقسم الى ماقد أسكن المنازل الظاهرة وهى الحواس الخمس، وإلى ما أسكن منازل باطنة وهى تجاويف الدماغ وهى أيضا خمسة، حس مشترك وتخيل وتفكير وتذكر وحفظ

١٨ — ويضرب لنا الغزالى أمثلة القلب مع جنوده الباطنة فيقول : أن جندى الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقياداً تاما، فيعينه ذلك على طريقه الذى يسلكه، وقد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد حتى يملكاه

ويستعبداه وفيه هلاكه ، وللقلب جند آخر وهو العلم والحكمة والتفكر وحقه أن يستعين بهذ الجند ، فان ترك يلاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة ، هلك اقيناً وخسر خسراناً مبيناً ، وذلك حالة أكثر الخلق .

ويقول الغزالى أن الانسان اصطحب فى خلقته وتركيبه أربع شوائب ، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الاوصاف مجموعة فى القلب (وهى السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية) .

ومحل العلم هو القلب ؛ ويعنى الغزالى به اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء ؛ ويرى أنه بالاضافة الى حقائق المعلومات كالمرآة بالاضافة الى صور المتلونات ؛ فكما أن للمتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبع فى المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع فى مرآة القلب وتتضح فيها .

١٩ — فالعالم عند الغزالى عبارة عن القلب الذى فيه مثال حقائق الاشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الاشياء

والعلم عبارة عن حصول المثال فى المرآة ، والقلب مرآة مستعدة لأن تتجلى فيها حقيقة الحق فى الأمور كلها .
ويرى أن القلوب انما خلت عن العلوم التى خلت عنها لأسباب خمسة (١) نقصان فى ذاته كقلب الصبى

(٢) لكدورة المعاصى والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات ، فان ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه (٣) أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة ، فان قلب المطيع الصالح وان كان صافياً فانه لاتتضح فيه جلية الحق لأنه لايطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب ، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ، ولا يصرف فكره الى التأمل فى حضرة الربوبية والحقائق الخفية الالهية ، فلا يكشف له إلا ما هو متفكر فيه

(٤) الحجاب : فان المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر فى حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق اليه منذ الصبا على

سبيل التقليد والقبول بحسن الظن . فان ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف فى قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد (٥) الجهل بالجهة التى يقع منها العثور على المطلوب : فان طالب العلم لا يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التى تناسب مطلوبه ، حتى اذا تذكرها ورتبها فى نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء بطرق الاعتبار : فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلى حقيقة المطلوب لقلبه .

٢٠ — ويرى الغزالى أن مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه : قد أفلح من زكاها ، يرى أن مراد تزكيته حضور أنوار الايمان ، ولهذا الايمان عنده ثلاث مراتب (١) ايمان العوام وهو إيمان التقليد المحض (٢) ايمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة ايمان العوام (٣) إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين .

الباب الاول

ما بينك وبين الله

« روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قيل لرسول الله ، يارسول الله أين الله ؟ فى الارض أو فى السماء ؟ قال : فى قلوب عباده المؤمنين » .

obeikandl.com

الفصل الاول

معرفة الله

٢١ – العلم بالله : يقول الغزالى أن «خاصية الانسان العلم والحكمة : واشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فبه كمال الانسان وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال : فالبدن مركب للنفس والنفس محل للعلم ، والعلم هو مقصود الانسان وخاصيته التى لأجلها خلق . فخاصية الانسان هى معرفة حقائق الاشياء » . ويقول أن جملة عالم الملكوت والملك اذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لانها محيطة بكل الموجودات « إذ ليس فى الوجود شىء سوى الله تعالى وأفعاله ومملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلى من ذلك للقلب هى الجنة : وهو سبب استحقاق الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله »

٢٢ – طرق المعرفة : ويقول الغزالى أن العلوم التى ليست

ضرورية انما تحصل فى القلب فى بعض الأحوال وتختلف الحال فى حصولها ، فتارة تهجم على القلب إلهاماً (لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل) كأنه ألقى فيه من حيث لايدرى ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم اعتبارا واستبصارا ، وأن القلب مستعد لأن تنجلى فيه حقيقة الحق فى الاشياء كلها ، لولا الحجب ، وقد تهب ريح الالطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب ، فينجلى فيها بعض ماهو مسطور فى اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك تارة عند المنام ، فيعلم به مايكون فى المستقبل ، وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فبه ينكشف الغطاء ، وينكشف أيضا فى اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفى من الله تعالى ، فيلمع فى القلوب من وراء ستر الغيب شىء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالى الى حد ما دوامه فى غاية الندور . ولذلك لم يحرص أهل التصوف على دراسة العلم وتحصيل ماصنفه المصنفون ، بل قالوا الطريق الاقبال على الله تعالى .

٢٣ - مابدل من أسماء العلوم : ولذا يرى الغزالى أن اسم الفقه فى العصر الاول كان مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع الى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب وأنه كان متناولا للفتاوى فى الاحكام الظاهرة ولكن بطريق العموم أو بطريق الاستتباع وان قوله تعالى «لهم قلوب لايفقهون بها» أراد به معانى الايمان دون الفتاوى . وكذلك يرى الغزالى أن لفظ العلم كان يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله فى عباده وخلقه ، وقد صار الآن مطلقا على من لايحيط بعلوم الشرع بشىء سوى رسوم جدلية فى مسائل خلافية . وكذلك قد جعل التوحيد الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والاحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التشدق فيها بتكثير الاسئلة واثارة الشبهات وتأليف الالزامات ، مع أن التوحيد فى العصر الاول كان عبارة عن أمر آخر ؛ وهو أن يرى الامور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الاسباب

والوسائط ؛ فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله .
فالتوحيد جوهر نفيس له قشران احدهما عن اللب من الآخر — يرى الغزالى ان الناس خصصوا الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر وأهملوا اللب بالكلية ، فالقشر الاول هو أن تقول بلسانك لا إله الا الله وهذا يسمى توحيدا مناقضا للتثليث الذى صرح به النصارى ولكنه قد يصدر من المنافق الذى يخالف سره جهره ، والقشر الثانى ان لا يكون فى القلب مخالفة وانكار لمفهوم هذا القول بل يشمل ظاهر القلب على اعتقاده وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق ، والمتكلمون حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة ، والثالث وهو اللباب أن يرى الامور كلها من الله وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده . ولذا كان التذكير المحمود شرعا هو التكلم فى علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الاعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ، والتذكير بآلاء الله

ونعمائه وتقصير العبد في شكره ؛ وتعريف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها وخطر الآخرة على الدنيا .

ويرى أنه لا ينبغى أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس ؛ ويذم تكثير الاشعار في المواعظ لا سيما ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق التي لا تحرك من قلوب أجلاف العوام إلا المستكن من الشهوات . ويذم الشطح بدعاوى طويلة عريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المغنى عن الاعمال الظاهرة (كدعوى الاتحاد) ؛ والكلمات ذات الظواهر الرائقة الغير مفهومة لقائلها بل صادرة عن خبط في عقله وتشويش في خياله ؛ أو مفهومة له ولكنه غير قادر على تفهيمها . وكذلك يطلق اسم الحكيم على الطبيب والشاعر والمنجم ؛ مع ان الحكمة هي التي أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ؛ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » .

٢٤ — الانسان مع ربه : ولذا يرى الغزالى أنه يجب

على الانسان أن يفهم التوحيد بأن يرى الاشياء كلها من مسبب الاسباب ، ولا يلتفت الى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة لاحكم لها . وأن يوقن بالثواب والعقاب بأن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ؛ وموقنا بأن الله تعالى مطلع عليه فى كل حال مشاهد لهواجس ضميره وخفايا خواطره وفكره ، ويظهر أثر الخشية عليه ؛ لاينظر اليه ناظر الا وكان نظره مذكرا الله تعالى . وكانت صورته دليلا على عمله ، فيكون أكثر بحثه عن علم الاعمال (فان أصل الدين التوقى من الشر) ، ويكون اعتماده فى علومه على بصيرته وادراكه بصفاء قلبه ، وأن يكون شديد التوقى من محدثات الامور ، وان اتفق عليها الجمهور .

٣٥ – *معنى كلمتى الشهادة* : يقول الغزالى أن معنى كلمتى الشهادة أن الله منزه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدور ، لايماثل الاجسام لافى التقدير ولا فى قبول الانقسام ؛ ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ، ولا بعرض

ولا تحله الاعراض، بل لايماثل موجوداً ولا يماثله موجود،
ليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء ، لايحده المقدار ولاتحويه
الافكار ، ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون
ولا السموات ، وهو قريب من كل موجود وهو أقرب
الى العبد من حبل الوريد وهو على كل شيء شهيد ، تعالى عن
ان يحويه مكان كما تقدس عن ان يحده زمان ، بائن عن خلقه
بصفاته ليس فى ذاته سواه ولا فى سواه ذاته ، مقدس عن
التغير والانتقال لاتحله الحوادث ولاتعتريه العوارض . بل
لايزال فى نعوت جلاله منزها عن الزوال وفى صفات كماله
مستغنياً عن زيادة الاستكمال ، وهو فى ذاته معلوم الوجود
بالعقول مرئى الذات بالأبصار ، وهو تعالى حى قادر جبار
قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سنة ولا
نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، وهو ذو الملك
والملكوت والعزة والجبروت ، وهو عالم بجميع المعلومات
محيط بما يجرى من تخوم الأرضين الى أعلى السموات ،
لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ،

يعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم قديم أزلى ، وهو تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات ، بل هو المبدىء المعيد الفعال لما يريد ، لاراد لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصية الا بتوفيقه ورحمته ، ولاقوة على طاعته الا بمشيئته وارادته ، وهو تعالى سميع بصير ، يرى من غير حدقة وأجفان ويسمع من غير أصمخة وآذان ، وهو تعالى متكلم آمر ، ناه ، واعد متوعد ، بكلام أزلى قديم قائم بذاته لايشبه كلام الخلق ، فالقرآن والتوراة والانجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام ، وهو سبحانه وتعالى لاموجود سواه الا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها ، حكيم فى أفعاله .

وأما الكلمة الثانية فهى الشهادة للرسل بالرسالة ، وأنه بعث النبي الأمى القرشى محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته الى كافة العرب والعجم والجن والانس ، فنسخ بشريعته الشرائع الاماقرره منها ، وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر ،

ومنع كمال الايمان بشهادة التوحيد مالم تقترن بها شهادة الرسول . وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة .

٢٦ — ويقول الغزالى أن الركن الأول من أركان الايمان فى معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأنه واحد . وأن مدار هذا الركن على عشرة أصول (١) معرفة وجوده تعالى (والحادث لايستغني فى حدوثه عن سبب يحدثه . والعالم حادث : فاذن لايستغنى فى حدوثه عن سبب) .

(٢) العلم بأن الله تعالى

قديم لم يزل ، أزلى ليس لوجوده أول (وبرهانه أنه لو كان حادثا ولم يكن قديما لافتقر هو أيضا الى محدث وافتقر محدثه الى محدث وتسلسل ذلك الى مالا نهاية : وماتسلسل لم يتحصل أو ينتهى الى محدث قديم هو الاول) .

(٣) العلم بأن الله تعالى

ليس لوجوده آخر ، فهو الاول والآخر والظاهر والباطن (لان ماثبت قدمه استحال عدمه : وبرهانه أنه لو انعدم

لكان لايخلو اماأن ينعدم بنفسه أو بعدم يضاده ، ولوجاز أن ينعدم شيء يتصور دوامه بنفسه ، لجاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه ، فللوجود سبب وللعدم سبب وباطل أن ينعدم بعدم يضاده لان ذلك العدم لوكان قديما لماتصور الوجود معه .

(٤) العلم بأنه تعالى

ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز .

(٥) العلم بأنه تعالى

ليس بجسم مؤلف من جواهر (لأن كل جسم مختص بحيز ومركب من جوهر ، والجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار . وهذه سمات الحدوث) .

(٦) العلم بأنه تعالى

ليس بعرض قائم بجسم أو حال فى محل (لان العرض مايحل فى الجسم ، وكل جسم هو حادث لامحالة ويكون محدثه موجودا قبله . والله موجود فى الأزل وحده ثم أحدث الاجسام والاعراض بعده ، وهو عالم قادر مريد خالق وهذه الاوصاف تستحيل على الاعراض)

(٧) العلم بأنه تعالى

منزه الذات عن الاختصاص بالجهات (إذ هو الذى خلقها بواسطة خلق الانسان ؛ ومارفع الايدى عند السؤال الى جهة السماء الا لأنه قبلة الدعاء ولما فيه من اشارة الى ماهو وصف المدعو من الجلال والكبرياء) (٨) العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالاستواء . وهو الذى لاينافى وصف الكبرياء ولايتطرق اليه سمات الحدوث والفناء ، وهو الذى أريد بالاستواء الى السماء .

(٩) العلم بأنه تعالى

مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والاقطار مرئى بالاعين والابصار فى الدار الآخرة لقوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة ، الى ربها ناظرة » (والرؤية نوع كشف وعلم ، الا أنه أتم وأوضح من العلم) .

(١٠) العلم بأنه عزوجل

واحد لاشريك له و « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (فلو كانا اثنين وأراد أحدهما أمرا ، فالثانى عاجز مقهور ان كان مضطرا الى مساعدته وان قدر على مخالفته فهو قوى

قاهر والأول ضعيف قاصر)

ويقول الغزالى أن الركن الثانى من أركان الايمان هو العلم بصفات الله تعالى ، بأنه « هو على كل شىء قدير » و « هو بكل شىء عليم » ، وأنه حى ، وأنه هو المبدىء المعيد والفعال لما يريد ، سميع (بلا أذن) بصير (بلا حدقة) ، لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير . وأنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام هو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف ، بل لا يشبه كلامه كلام غيره

(ان الكلام لفى الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا)

وأن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلا للحوادث داخلا تحت التغير ، بل يجب للصفات من نعوت القدم ما يجب للذات فلا تعتريه التغيرات ولا تحله الحادثات (فكلام الله قديم وانما الحادث هى الاصوات الدالة عليه) . وأن علمه قديم (فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلى)

وأن ارادته وهى فى القـدم تعلقت باحداث الحوادث فى أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلى (اذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ، ولو حدثت فى غير ذاته لم يكن هو مريدا لها) .

ويقول الغزالى ان الركن الثالث من أركان الايمان هو العلم بأفعال الله تعالى ، وأن كل حادث فى العالم هو فعله وخلقه واختراعه ، وان انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد ، لايخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب ، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا ، وخلق الاختيار والمختار جميعا ، وان فعل العبد وان كان كسبا للعبد ، فلا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه وتعالى . وأن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتكليف العباد ، ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه ، اذ هو الموجب والآمر والناهى . وأنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق مالايطيقونه . وأن لله عز وجل ايلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق ، لانه متصرف فى

ملكه (والظلم عبارة عن التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، وهو محال على الله تعالى) . وأنه تعالى يفعل بعباده مايشاء ؛ فلا يجب عليه رعاية الاصلح لعباده (اذ القبيح مالا يوافق الغرض ؛ فان أريد بالقبيح مالا يوافق غرض البارى سبحانه فهو محال اذ لا غرض له فلا يتصور منه قبيح ، كما لا يتصور منه ظلم ؛ وان أريد القبيح مالا يوافق غرض الغير فهذا مجرد تشبه ؛ ثم معنى الحكيم العالم بحقائق الاشياء القادر على أحكام فعلها على وفق ارادته) . وأن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بايجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل خلافا للمعتزلة (لان العقل وان أوجب الطاعة فلا يخلو ، اما ان يوجبها لغير فائدة وهو محال ؛ فان العقل لا يوجب العبث ، واما أن يوجبها لفائدة وغرض ، وذلك لا يخلو اما أن يرجع الى المعبود وذلك محال فى حقه تعالى ، واما أن يرجع ذلك الى غرض العبد وهو أيضا محال لانه لا غرض له فى الحال بل يتعب به وينصرف عن الشهوات بسببه ، وليس فى المآل إلا الثواب والعقاب) . وأنه لا يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام

وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين .

ويحدثنا الغزالى عن ركن رابع من أركان الايمان سماه السمعيات وأهمها الحشر والنشر « ومن يحيي العظام وهى رميم ؛ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وأن الجنة والنار مخلوقتان .

الايمان والاسلام : ويقول الغزالى أن موجب اللغة أن الاسلام أعم والايمان أخص ؛ لان الايمان لغة عبارة عن التصديق (وللتصديق محل خاص وهو القلب واللسان ترجمانه) ، وأما الاسلام فعبارة عن التسليم (وهو عام فى القلب واللسان والجوارح) وقد ورد الشرع باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد كقوله تعالى « ياقوم ان كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » ، وورد على سبيل الاختلاف كقوله تعالى « قالت الاعراب آمنا ؛ قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » ، وورد على سبيل التداخل كما ورد

أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أى الاعمال أفضل فقال « الاسلام » فسئل أى الإسلام أفضل فقال « الايمان » .

ويقول الغزالى ان الايمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه : (١) أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر ، وهو ايمان العوام ؛ وهذا الاعتقاد عقدة على القلب تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخى كالعقدة على الخيط مثلا . والعمل يؤثر فى نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقى الماء فى نماء الاشجار ، ولذلك قال تعالى « ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » . فالايمان يزيد وينقص وذلك بتأثير الطاعات فى القلب ، ولهذا قال على كرم الله وجهه « ان الايمان ليبدو لمعة بيضاء ؛ فاذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله ، وان النفاق ليبدو نكتة سوداء ، فاذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله ، فيطبع عليه »

(٢) أن يراد به التصديق والعمل جميعاً ، كما قال صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى

حين يزنى وهو مؤمن »   (٢) أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة ، وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ؛ ولكن يلاحظ أن الأمر اليقيني الذى لاشك فيه تختلف طمأنينة النفس اليه ؛ فليس طمأنينة النفس الى أن الاثنين أكثر من الواحد : طمأنينتها الى أن العالم مصنوع حادث وان كان لاشك فى واحد منهما ، فان اليقينيات تختلف فى درجات الايضاح ودرجات طمأنينة النفس اليها .

خلاصة : فالغزالى يرى السبيل الموصلة لمعرفة الله معرفة صفاته وأفعاله ، وأن معرفة الله الحقة مؤدية الى أن تعرف أن (الله أكبر) ؛ وهذه المعرفة تصل بك الى أن يكون رجاؤك فى الله وحده وخوفك منه وحده وعملك له وحده ؛ وهذا يصل بك الى أعظم مرتبة من مراتب التوحيد التى سنحدثك عنها فى الفصل الآتى ، وتصل بك هذه المرتبة العظيمة الى ماهو أعظم منها بأن ينكشف لك لا فاعل الا الله تعالى وان كل شىء فى الوجود من الله وبالله ولله .

openkanz.com

الفصل الثانى

توحيد الله والتوكل عليه

٣٧ – توحيد الله : ويقول الغزالى ان التوحيد يترجمه قولك لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن هذا التوحيد له أربع مراتب : (١) أن يقول الانسان بلسانه لاإله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين . (٢) أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام .

(٣) أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار (٤) أن لا يرى فى الوجود إلا واحدا وهى مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفيه الفناء فى التوحيد لانه من حيث لايرى إلا واحدا فلا يرى نفسه

obeikandi.com

ويوضح الغزالى المرتبة الثالثة بأن ينكشف لك ألا فاعل الا الله تعالى وان كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغني وفقر الى غير ذلك مما يتعلق عليه اسم ؛ فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لاشريك له فيه « فان تولوا فقل حسبي الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » ؛ واذا انكشف لك هذا لم تنظر الى غيره بل كان منه خوفك واليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك ؛ فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وماسواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والارض . ويضرب لنا الغزالى مثل القلم وقد خط به صاحبه كلمة نجاة لك مثلا فهل تنسب هذه النجاة للقلم أم تنسبها لصاحبه ؟ لاريب أن تلك الكلمة وقد يكون فيها لك الخير كله منسوبة لمن بيده القلم ، ولكن هل يملك لك حامل القلم أقل نفع أو أقل ضر ؟ الجواب لا ! . . . لانه لا يملك لنفسه جلب أقل نفع أو دفع أقل ضر ؛ فيجب اذن أن لاترجو سوى الله لان حامل القلم (وهو في مثالنا مصدر

الامر) مسخر تحت قهر الله وقدرته مردد فى قبضته ، فالله هو الاول بالاضافة الى الموجودات اذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد ، وهو الآخر بالاضافة الى سير السائرين اليه فانهم لايزالون مترقين من منزل الى منزل الى أن يقع الانتهاء الى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر ، فهو آخر فى المشاهدة أول فى الوجود ، وهو الباطن بالاضافة الى العاكفين فى عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس الخمس ، وهو الظاهر بالاضافة الى من يطلبه فى السراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة فى عالم الملكوت .

ولكن ما القول فى أمر زيد (وليكن بترقية فلان أو بفصله من وظيفته) ، أليس اذا شاء أن يكتب كتب وان شاء أن يمتنع امتنع ؟ يقول الغزالى ان الفعل الاختيارى (كـكتابة الانسان بالاصابع) والفعل الارادى (كتنفسه بالرئة والحنجرة) منسوب اليه ، ولكن الجبر ظاهر فى الفعل الطبيعى (كالتنفس) لانه ضرورى « فالفعل الاختيارى هو مظنة الالتباس وهو الذى يقال فيه ان شاء فعل وان

شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لايشاء فيظن من هذا ان الامر اليه : ولكن يوضحه ان الارادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشيء موافق لك : والاشياء تنقسم الى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه لا يوافقك من غير تحير وتردد والى ماقد يتردد العقل فيه : فالذى تقطع به من غير تردد أن يقصد بدنك بسيف فلا يكون فى علمك تردد فى أن دفع ذلك خير لك وموافق لك فلا جرم تنبعث الارادة بالعلم والقدرة بالارادة وتحصل حركة اليد بدفع السيف من غير روية فكرة ويكون ذلك بالارادة : ومن الاشياء مايتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدرى أنه موافق أم لا فيحتاج الى روية وفكر حتى يتميز أن الخير فى الفعل أو الترك : فاذا حصل بالفكر والروية العلم بان أحدهما خير التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية وفكر : فانبعثت الارادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف ، فاذا انبعثت لفعل ماظهر للعقل انه خير سميت هذه الارادة اختيارا مشتقا من الخير اى هو انبعاث الى ماظهر للعقل انه خير وهو عين تلك الارادة . فالاختيار

عبارة عن ارادة خاصة وهى التى انبعثت منها باشارة العقل فيماله فى ادراكه توقف ، ولايتصور أن تنبعث الارادة الابحكم الحس والتخييل أو بحكم جزم من العقل . فاذا معني كونه مجبورا ان ماحصل حصل من غيره لامنه ومعنى كونه مختارا انه محل لارادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضاً موافقاً وحدث الحكم أيضاً جبرا فاذا هو مجبور على الاختيار ، ففعل النار فى الاحراق مثلا جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين فانه جبر على الاختيار يسمى كسبا »

ويقول الغزالى ان حوالة جميع ذلك على المعنى الذى يعبر عنه بالقدرة الازلية ، فبعض المقدورات مترتب على البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الازلية ارادة الا بعد علم ، ولاعلم الا بعد حياة ولاحياة الا بعد محل الحياة .

ولكن كيف الجمع بين التوحيد والشرع ، ومعنى التوحيد أن لافاعل الا الله تعالى ، ومعنى الشرع اثبات

الافعال للعباد . فان كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا ؛ وان كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ؟ يقول الغزالى ان الله فاعل بمعنى أنه المخترع الموجد ، ومعني كون العبد فاعلا انه المحل الذى خلق فيه الارادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالارادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط ؛ وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . فاسم الفاعل في الحقيقة لله ولغيره بالمجاز .

٣٨ – التوكل على الله : ويقول الغزالى « ان لمقام التوكل على الله اعتقادا قاطعا لا يسترتيب فيه وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب ؛ ان الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم ؛ وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهى لوصفها ثم زاد عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير

والشر والنفع والضر ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه ان يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرة ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلى به ولا يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه ، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والارض ان رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ماراأوا فيها من تفاوت ولا فطور ، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وايمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لاجور فيه ، وحق صرف لاظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ماينبغى وبالقدر الذى ينبغى وليس فى الامكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ولو كان ادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرا لكان

عجزا يناقض الالهية . بل كل فقر وضر فى الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة فى الآخرة . وكل نقص فى الآخرة بالاضافة الى شخص فهو نعيم بالاضافة الى غيره اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تنعم الاصحاء بالصحة ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة » .

فالغزالى يقول ان الخير والشر مقضى به وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة ، فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره ، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر : وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك .

ويقول الغزالى « ان التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ؛ فان ثبت فى نفسك بكشف أو باعتقاد جازم انه لا فاعل إلا الله ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وانه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة

اتـكل لامحالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت الى غيره بوجه ولا الى نفسه وحـوله وقوته فانه لاحول (حركة) ولاقوة (قدرة) الا بالله » . ويقول ان كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك فهذا اما لضعف اليقين باحدى هذه الخصال الاربعة وأما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليـه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه ، فاذا لايتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته

٣٩ — ويرى الغزالى أن التوكل فى القوة والضعف ثلاث درجات (١) أن يكون حاله فى حق الله تعـالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله فى الثقة بالوكيل وهذا لايترك التدبير الذى أشار اليـه وكيله به أو التدبير الذى عرفـه من عادته وسنته دون صريح اشارته

(٢) أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمـه فانه لايعرف غـيرها ولايفزع الى أحـد سواها ولايعتمد إلا إياها ، فاذا رآهـا تعلق فى كل حال بذيلها ولم يخلها ، وان نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يا أماه

وأول خاطر يخطر على قلبه أمـه فانها مفزعه فانه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع ادراك بالتمييز الذى له ويظن أنه طبع . فمن كان باله الى الله عز وجل ونظره اليه واعتماده عليه : كلف به كما يكلف الصبي بامه فيكون متوكلا حقا ، وهذا يقتضى ترك السؤال من غير الله

(٣) أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل لايفارقه إلا فى أنه يرى نفسه ميتاً تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت : وهو الذى قوى يقينه بانه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وان كلا يحدث جبراً : فهو مثل صبي علم انه وأن لم يزعق بامه فالأم تطلبه وانه لم يتعلق بذيل أمه فالام تحمله وان لم يسألها اللبن فالام تفاتحه وتسقيه . وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وانه يعطى ابتداء أفضل مما يسئل فكم من نعمة ابتدأها (قبل السؤال والدعاء) بغير الاستحقاق .

٣٠ — وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب

بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم ؛ فيقول الغزالى ان هذا ظن الجهال فالمقطوع به (وذلك مثل الاسباب التى ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لايختلف) ان لاشبع بلا أكل وأن الخبز لايسعى اليك بل تسعى اليه ، وأنت الذى تمضغه وهو لن يمضغ نفسه ولن يسخر الله لك ملكا ليوصله الى معدتك ؛ والمقطوع به أن الثمر لايأتى من غير زرع وأنك لن يكون لك نسل من غير زواج ، وهكذا . . فليس التوكل فى هذا المقام بالعمل بل بالعلم (بانه تعالى خلق الطعام واليد والاسنان الخ . . . وانه الذى يطعمك ويسقيك) والحال (بان يسكن قلبك وتعتمد على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام الخ ... لان اليد قد تفلج وقد يطرأ عليك فى الحال مايزيل عقلك ويبطل قوة حركتك الخ ..).

أما الاسباب التى ليست متيقنة ولكن الغالب ان المسببات لاتحصل دونها (كالذى يسافر فى البوادى التى لايطرقها الناس الا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب

زاد) فهذا ليس شرطا فى التوكل ولكن فعله جائز بشرط أن يكون قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام (مثلا) اسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر فى ذكر الله تعالى .

أما ملابسة الاسباب التى يتوهم افضاؤها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه . فذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها وهو الذى فيه الناس كلهم أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح ، فأما أخذ الشبهة او باكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الاسباب : فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل (وهذا مثل الاسباب التى نسبتها الى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة) . أى ان الغزالى يرى أن الاسباب منقسمة الى مايخرج التعلق بها عن التوكل والى مالايخرج ، وان الذى يخرج ينقسم الى مقطوع به والى مظنون ، وان المقطوع به لايخرج عن التوكل عند وجود

حال التوكل وعامه وهو الاتكال على مسبب الاسباب ، فالتوكل فيهابالحال والعلم لا بالعمل ، وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً . ويقول الغزالى ان المقصود اصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه ، والمحذور مايشغل عن الله عز وجل ، والا فالدنيا فى عينها غير محذورة لاوجودها ولاعدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات ، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما ، بل دعا الكل الى الله تعالى وأرشدهم الى أن فوزهم ونجاتهم فى انصراف قلوبهم عن الدنيا الى الله تعالى . فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس الى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الاسباب الظاهرة» . ويقول الغزالى ان صواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن صواب القوى ترك الادخار ، فاما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت

سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكينا لقلوبهم .

والضرر قد يعرض للخوف فى نفس أو مال، وليس من شروط التوكل ترك الاسباب الدافعة رأسا . أما فى النفس فكالنوم فى الأرض المسبعة أو فى مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر . فكل ذلك منهى عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك ؛ ولكن يلاحظ أن ترك الموهوم منها (وهى التى نسبتها الى دفع الضرر نسبة الرقية والكى) من شرط التوكل ؛ ولترك الاسباب الدافعة ان كانت مقطوعة (أو مظنونة) وجه اذا ناله الضرر من انسان فانه اذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفى فشرط التوكل الاحتمال والصبر ؛ وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل فى شىء اذ لافائدة فيه ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لاعانته على الدين وكذلك فى الاسباب الدافعة عن المال فلا ينقض التوكل باغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى اما قطعا واما ظنا اذ قال

تعالى « خذوا حذركم » وقال صلى الله عليه وسلم للاعرابى لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله « اعقلها وتوكل » ، وهو يكون متوكلا بالعلم (بأن يعلم أن اللص مثلا إن اندفع لم يندفع بكفايته فى اغلاق الباب ، بل لم يندفع الا بدفع الله تعالى إياه) والحال (بأن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى به فى بيته ونفسه من خير وشر) .

والأسباب المزيلة للضرر أيضا تنقسم الى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع ، والى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب أعني معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهى الأسباب الظاهرة فى الطب ، والى موهوم كالكى والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت ، وأما الموهوم فشرط التوكل تركه والاعتماد عليه والاتكال اليه غاية التعمق فى ملاحظة الاسباب ، وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة (كالمداواة بالاسباب الظاهرة عند الاطباء) . ففعله ليس مناقضا للتوكل

بخلاف الموهوم ، وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الاحوال وفى بعض الاشخاص (ومن أودع العقاقير منافع الأشياء غير الله ؟) ، ويدل على أن التداوى غير مناقض للتوكل فعل الرسول الكريم وقوله « تداووا عباد الله : فان الله خلق الداء والدواء » .

ويقول الغزالى ان كتمان المرض واخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر : لان الرضى بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمانه أسلم عن الآفات ، ومع هذا فالاظهار لا بأس به الا اذا صححت فيه النية والقصد ، ومقاصد الاظهار ثلاثة (١) أن يكون غرضه التداوى فيحتاج الى ذكره للطبيب فيذكره لا فى معرض الشكاية بل فى معرض الحكاية (٢) أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا فى المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض بل حسن الشكر (٣) أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره الى الله تعالى وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة

الفصل الثالث

عبادة الله تعالى

٣١ — الطهارة : قال تعالى « مايريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج ، ولكن يريد ليطهركم » ، ويقول الغزالى ان لهذه الطهارة أربع مراتب (١) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الاخباث والفضلات (بالاستنجاء فاذا فرغ منه اشتغل بالوضوء ويبتدىء بالسواك ويزيل القلح من على الاسنان وطرف اللسان ، ثم يجلس للوضوء بغسل يديه والمضمضة والاستنشاق وغسل الوجه وغسل اليدين الى المرفقين ومسح الرأس وغسل الرجلين (ثلاثا فى كل) ويزاد في الغسل بعد ازالة ماعلى البدن من نجاسة ان كانت صب الماء على الرأس ثم على الشق الايمن ثم الشق الايسر (ثلاثة فى كل) . ومن تعذر عليه استعمال الماء لفقده أو بمانع له عن الوصول اليه من سبع أو حابس أو كان الماء الحاضر

obeikandi.com

يحتاج اليه لعطشه أو عطش رفيقه أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو او شدة الضنى . فان يتيمم بالمسح بالتراب الطاهر الخالص الليف . (٢) تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام (٣) تطهير القلب عن الاخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة (٤) تطهير السر عما سوى الله تعالى

٣٢ – الصلاة : والصلاة ذكر إذ قال تعالى « وأقم الصلاة لذكرى » ويقول الغزالى إن الذكر فى الصلاة هو محاورة ومناجاة مع الله عز وجل (حمد وثناء وتضرع ودعاء) ؛ والمقصود الحروف من حيث أنه نطق . ولايكون نطقا الا إذا أعرب عما فى الضمير ؛ ولا يكون معربا إلا بحضور القلب . وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم قطعا ولايكون معظما لله عز وجل الغافل عنه : فحضور القلب هو روح الصلاة . فيرى ان حياة الصلاة لاتتم الا بحضور القلب بان يفرغ عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به ؛ فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما

ولا يكون الفكر جائلا فى غيرهما ، فان قلبك تابع لهمتك فلا يحضر الا فيما يهمك ، فعلاج احضار القلب صرف الهمة الى الصلاة ، وكذلك يجب التفهم بادمان الفكر بعد حضور القلب وصرف الذهن الى ادراك المعنى بالاقبال على الفكر ودفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها بالنزوع عن تلك الاسباب التى تنجذب الخواطر اليها وهجوم حب الله على القلب لتصفو صلاتك عن الخواطر . وكذلك يجب عليك فى صلاتك تعظيم الله بمعرفة جلاله وعظمته وحقارة النفس وخستها ، وأن تهابه (والهيبة خوف مصدره الاجلال) وأن تكون راجيا بصلاتك ثواب الله عز وجل وأن تكون حييا مستشعرا التقصير فى العبادة متوهما الذنب لعلمك بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل .

٣٣ — دواء لحضور القلب : فالغزالى يرى أن انفكاك المؤمن عن تعظيم الله عز وجل فى صلاته وخوفه منه ورجائه له واستحيائه من تقصيره (وهذه أحوال ملازمة له بعد ايمانه ، وقوتها بقدر يقينه) ، لاسبب له إلا تفرق

الفكر وتقسم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة ، ولا يلهى عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة فالدواء فى احضار القلب هو دفع تلك الخواطر ، ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه .

٣٤ — ويقول الغزالى «ان سبب موارد الخواطر اما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً فى ذاته باطناً ، أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر ، فان ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة الى غيره ويتسلسل ، ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ماجرى على حواسه ، ولكن الضعيف لابد وأن يتفرق به فكره ، وعلاجه قطع هذه الأسباب (بأن يغض بصره أو لايترك بين يديه مايشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لاتتسع مسافة بصره) . وأما الاسباب الباطنة فهى أشد ، فان من تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا ، لاينحصر فكره فى فن واحـــد ، فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً الى فهم مايقرؤه فى الصلاة وشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك

أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة ؛ فان كان لا يسكن هائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه الا المسهل الذى يقمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر فى الامور الصارفة الشاغلة له عن احضار القلب ، ولاشك أنها تعود الى مهماته ، وأنها انما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن الشهوات وقطع تلك العلائق ، أما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين ، بل لا تزال يجاذبها وتجاذبه ثم تغلبه وتنقضى جميع صلاته فى شغل المجاذبة »

٣٥ - الزكاة : وقد قال تعالى « واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ، وهو ربع العشر ، ويقول الغزالى ان على مريد الآخرة بزكاته وظائف (١) فهم وجوب الزكاة ومعناها ، ووجه الامتحان فيها شكر النعمة وتطهير النفس من صفة البخل بان تتعود بذل المال وامتحان حبنا لله بمفارقتنا لجزء من أموالنا « وان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بان لهم الجنة » (٢) التعجيل عن وقت

الوجوب اظهارا للرغبة فى الامتثال بايصال السرور الى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان ان تعوقه عن الخيرات

(٣) الاسـرار . فان ذلك أبعد عن الرياء والسمعة (٤) أن يظهر حيث يعلم أن فى اظهاره ترغيبا للناس فى الاقتداء (٥) أن لا يفسد صدقته بالمن (بذكرها) والأذى (باظهارها والتكبر على الآخذ وتعييره بالفقر وانتهاره وتوبيخه). (٦) أن يستصغر العطية فانه ان استعظمها أعجب بها والعجب محبط للاعمال

(٧) أن ينفق من ماله أجوده وأحبه اليه وأجله وأطيبه (٨) أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة : فيطلب الاتقياء . لان التقى يستعين به على التقوى فتكون شريكا له فى طاعته باعانتك اياه . وان يكون من أهل العلم خاصة اعانة له على العلم : وان يكون صادقا فى تقواه وعلمه بالتوحيد بانه اذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى النعمة منه ولم ينظر الى واسطة : وان يكون مستترا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى ؛ أو يكون من

أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته ، وأن يكون معيلا أو محبوسا بمرض أوسبب من الاسباب، وأن يكون من الاقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم، والاصدقاء واخوان الخير يتقدمون على المعارف كما يتقدم الاقارب على الأجانب .

٣٦ — ويرى الغزالى أن وظائف القابض : —

(١) أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة ليكفى همه بجعل همومه هما واحدا وهو الله سبحانه وتعالى واليوم الآخر، ولتكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله، فان لم يقدر عليه فليصرفه الى ما أباحه الله عز وجل والا كان مستحقا للبعد والمقت من الله سبحانه (٢) أن يشكر المعطى ويدعو له ويثني عليه ، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لايخرجه من كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه اليه، وذلك لاينافى رؤية النعمة من الله سبحانه. ومن تمام الشكر ان يستر عيوب العطاء ان كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع اذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه

(٣) أن ينظر فيما يأخذه ، فان لم يكن من حل ، تورع عنه ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب (٤) أن يتوق مواقع الريبة والاشتباه فى مقدار ما يأخذه ، فلا يأخذ الا المقدار المباح ، ولا يأخذ الا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق (فقير ، مسكين ، عامل ، مؤلف قلبه على الاسلام ، مكاتب ، غارم ، غازى فى سبيل الله ، ابن سبيل)

(٥) أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه ، فان كان مايعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه ، فانه لايستحق مع شريكه الا الثمن .

٣٧ ـ ويوجد فى الاسلام غير الزكاة صدقة التطوع اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فان لم تجدوا فبكلمة طيبة » ، ويقول الغزالى انا لا نحكم حكما باتا بأن اخفاء الصدقة أفضل فى كل حال أو اظهارها أفضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات ، وتختلف النيات باختلاف الاحوال والاشخاص ، وان كان على الجملة الاخذ

فى الملأ والرد فى السر أحسن المسالك وأسماها ، والاخفاء أبقى للستر على الآخذ ، وأسلم لقلوب الناس وألسنتهم (فانهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه) ، واعانة المعطى على أسرار العمل (فان فضل السر على الجهر فى الاعطاء أكثر) وعدم اذلال وامتهان للآخذ (وليس للمؤمن أن يذل نفسه) ، واحتراز عن شبهة مشاركة الحاضرين فيها . ولكن مع هذا فى الاظهار والتحدث اخلاص وصدق وفى الاظهار اقامة لسنة الشكر « وأما بنعمة ربك فحدث » وبيان أن العارف لا نظر له الا الى الله عز وجل والسر والعلانية فى حقه واحد

٣٨ — الصوم : أما الصوم فيقول الغزالى فيه أنه ثلاث درجات : صوم العموم (بكف البطن والفرج عن قضاء الشهوة) وصوم الخصوص (بكف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام) وصوم خصوص الخصوص (بصوم القلب عن الهمم الدنيئة والافكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية) . وأما صوم الخصوص بكف الجوارح عن الآثام فتمامه

بستة أمور (١) غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر (النظر بشهوة) الى كل مايذم ويكره والى كل مايشغل القلب ويلهى عن ذكر الله عز وجل.

(٢) حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء ، والزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتعالى وتلاوة القرآن

(٣) كف السمع عن الاصغاء الى كل مكروه ، لان كل ما حرم قوله حرم الاصغاء اليه .

(٤) كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل وعن المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الافطار (بالكف عن الطعام الحرام)

(٥) أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الافطار بحيث يمتلىء جوفه ، اذ مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى

(٦) أن يكون قلبه بعد الافطار معلقا مضطربا بين خوف رد صومه ورجاء قبوله

٣٩ – الحج : وقد فرض الله تعالى الحج على كل مسلم بالغ عاقل حر مستطيع (بأن تمكنه صحته من ذلك وأن تكون الطريق آمنة ، وأن يجد نفقة ذهابه وايابه الى وطنه ، وأن يملك نفقة من تلزمـه نفقته فى هذه المدة) .

ويقول الغزالى ان أول الحج فهم موقعه فى الدين ويوضح ذلك بقوله أنه لا وصول الى الله تعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والتجرد لله سبحانه فى جميع الحركات والسكنات ، ولاجل هذا انفرد الربانيون فى الملل السالفة عن الخلق وانحازوا الى قلال الجبال ، فالحج رهبانيتنا ، فشرف الله البيت العتيق بالاضافة الى نفسه تعـالى ، ونصبه مقصد العبادة وجعل ماحواليه حرما لبيته تفخيما لأمره وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، يقصده الزوار من كل فج عميق شعثا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له ، مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ فى عبوديتهم وأتم فى اذعانهم ، ولذلك وظف عليهم أعمالا لا تأنس بها النفوس ولا تهتدى الى معانيها العقول كرمى

الجمار بالاحجار والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار وذبح الهدى . فاذا تحقق بان البيت بيت الله ؛ فينبعث شوقه للحج ؛ وبعد الشوق يرى الغزالى أنه يأتى العزم على الحج فيقول انه يجب أن يجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة . فاذا عزم يرى الغزالى وجوب قطع العلائق ويفسره بانه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصى ؛ ويقول بوجوب أن يطلب الزاد من موضع حلال ؛ وايتذكر ان سفر الآخرة أطول من هذا السفر وازاده التقوى . واذا أحضر الراحلة فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة ؛ وليتذكر عنده المركب الذى يركبه الى دار الآخرة وهى الجنازة التى يحمل عليها . واذا اشترى ثوبى الاحرام ليتزر بهما عند القرب من بيت الله عز وجل ؛ فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه عند لقاء الله عز وجل (وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب اذ ليس فيه مخيط كما فى الكفن) .. ويمضى الغزالى فى حديثه فيقول اذا

خرج من البلد فليحضر فى قلبه رجاء الوصول والقبول .
واذا دخل البادية الى الميقات وشاهد تلك العقبات ، فليتذكر فيها مابين الخروج من الدنيا بالموت الى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات ، واذا أحرم ولبى من الميقات ، فليعلم ان معناه اجابة نداء الله عز وجل فليرج أن يكون مقبولا وليخش أن يقال له لا لبيك ولا سعديك . فاذا دخل مكة ، فليتذكر عندها انه قد انتهى الى حرم الله تعالى آمنا ، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل .
فاذا وقع بصره على البيت فينبغى أن يحضر عنده عظمة البيت فى القلب ، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه اياه ، وليذكر انصباب الناس فى القيامة الى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم الى مأذونين فى الدخول ومصروفين انقسام الحاج الى مقبولين ومردودين .
وبهذه المعانى يفسر الغزالى باقى الاعمال فيقول ان الحاج اذا طاف بالبيت ، فليعلم انه صلاة ، وليعلم انه بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين حوله ، ولا

يظن أن المقصود طواف جسمه بالبيت بل طواف القلب بحضرة الربوبية ، وان البيت مثال ظاهر فى عالم الملك لتلك الحضرة التى لا تشاهد بالبصر وهى عالم الملكوت ، كما أن البدن مثال ظاهر فى عالم الشهادة للقلب الذى لا يشاهد بالبصر وهو فى عالم الغيب . فاذا استلم فليعتقد عنده انه مبايع لله عز وجل على طاعته ؛ فليصمم عزيمته على الوفاء ببيعته . فاذا تعلق باستار الكعبة والتصق بالملتزم ؛ فلتكن نيته فى الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت ولتكن نيته فى التعلق بالستر الالحاح فى طلب المغفرة وسؤال الأمان ؛ فاذا سعى بين الصفا والمروة فى فناء البيت ، فليتذكر عنده تردده بين كفتى الميزان فى عرصات القيامة ؛ وليتمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات . فاذا اعتكف بعرفة ، فليذكر بما يرى من ازدحام الخلق وارتفاع الاصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أئمتهم ، عرصات القيامة واجتماع الامم مع الانبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيها وطمعهم فى شفاعتهم وتحيرهم فى ذلك الصعود

الواحد بين الرد والقبول ، واذا تذكر ذلك فليلزم قلبه الضراعة والابتهال الى الله عز وجل فيحشر فى زمرة الفائزين المرحومين ، وليحقق رجاءه بالاجابة . واذا زار المدينة ، فليتذكر انها البلدة التى اختارها الله لنبيه . فاذا زار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينبغى أن يقف بين يديه بسكينة ووجل ؛ وليمثل صورته الكريمة فى خياله وليحضر عظيم رتبته فى قلبه . ويجب أن يلزم قلبه الحزن والخوف والهم اذ لا يدرى أيقبل منه حجه أم يرد .

٤٠ — تلاوة القرآن : ومن العبادة تلاوة القرآن ، ويقول الغزالى ان ظاهر آداب التلاوة (١) أن يكون القارىء على الوضوء واقفا على هيئة الادب والسكون اما قائما واما جالسا مستقبل القبلة مطرقا رأسه غير متربع ولا متكىء ولا جالس على هيئة التكبر (٢) أولى ما يرجع اليه فى مقدار القراءة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقهه » وذلك لان الزيادة عليه تمنع الترتيل ، والترتيل هو المستحب فى هيئة القرآن ،

لان المقصود من القراءة التفكير والترتيل معين عليه : لان الترتيل والتؤدة أقرب الى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا فى القلب من الهذرمة والاستعجال ؛ ويجب أن يحسن القراءة ويرتلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظام

(٣) أن يتعوذ بالله فى مبتدأ قراءته ؛ وليقل عند فراغه صدق الله وبلغ رسوله ، ويستحب أن يبكى مع القراءة وأن يراعى حق الآيات . فاذا مر مثلا بآية سجدة سجد

(٤) لابد أن يجهر بالقراءة الى حد يسمع نفسه ، لان الجهر يوقظ قلب القارىء ويجمع همه الى الفكر فيه ويصرف اليه سمعه ؛ ولكن الاسرار أبعد عن الرياء والتصنع .

ويرى الغزالى أن أعمال الباطن فى التلاوة : ـ

(١) فهم أصل الكلام وعظمته وعلوه ، وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه فى نزوله عن عرش جلاله الى درجة افهام خلقه ، وينبغى أن يحضر القارىء فى قلبه عظمة المتكلم ويعلم أنه « لا يمسه

إلا المطهرون » وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس
عن ظاهر بشرة اللامس الا اذا كان متطهرا ، فباطن معناه
أيضا بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا اذا
كان متطهرا عن كل رجس ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير ،
وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد ، فلا يصلح لتلاوة
حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب (٢) حضور القلب
وترك حديث النفس ، والتدبير وهو وراء حضور القلب ،
والتفهم وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، فاذا ذكر
الله خلق السموات والارض وغيرها ، فليفهم التالى منها
صفات الله عز وجل وجلاله « اذ الفعل يدل على الفاعل ،
فتدل عظمته على عظمته ، فينبغى أن يشهد فى الفعل الفاعل
دون الفعل ، فمن عرف الحق رآه فى كل شىء ، اذ كل شىء
فهو منه واليه وبه وله ، فهو الكل على التحقيق ؛ ومن
لا يراه فى كل ما يراه فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف
ان كل شىء ماخلا الله باطل وان كل شىء هالك إلا وجهه ،
لا انه سيبطل فى ثانى الحال الآن بل هو باطل ان اعتبر

ذاته من حيث هي الا ان يعتبر وجوده من حيث انه موجود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض » .

(٣) التخلى عن موانع الفهم . (وهي أن يكون الهم منصرفا الى تحقيق الحروف باخراجها من مخارجها ، أو ان يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت فى نفسه التعصب له من غير وصول اليه ببصيرة ومشاهدة . أو أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى فى الجملة بهوى فى الدنيا مطاع أو أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا واعتقد انه لا معنى لكلمات القرآن الا ماتناوله النقل ، وان ماوراء ذلك تفسير بالرأى ، مع ان فى معانى القرآن متسعا لأرباب الفهم والممنوع التفسير بالرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح)

(٤) التخصيص وهو ان يقدر انه المقصود بكل خطاب فى القرآن . فاذا سمع أمرا اونهيا ، قدر انه المنهى والمأمور ، وان سمع وعدا

obeikandi.com

أو وعيدا فكمثل ذلك ، وان سمع قصص الأولين والانبياء ، علم أن السمر غير مقصود وانما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه مايحتاج اليه (٥) التأثر وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره . « وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب ، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تفسير المعانى ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار ، فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ » فيترقى الى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لامن نفسه ، ويبرأ من حوله وقوته والالتفات الى نفسه بعين الرضى والتزكية .

٤١ — ذكر الله ودعاؤه : وقد قال تعالى « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولاتكن من الغافلين » وقال « ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم

داخرين . » . ويقول الغزالى ان المؤثر النافع هو الذكر على الدوام (أو فى أكثر الاوقات) مع حضور القلب . وهو المقدم على سائر العبادات ؛ بل به تشرف وهو غاية ثمرتها العملية ، وأول الذكر يوجب الانس والحب وآخره يوجبه الانس والحب ويصدر عنه ؛ وهو المطلوب . ويفهم من قوله تعالى « اذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ؛ ومن الليل فاسجد له ؛ وسبحه ليلا طويلا » وجوب احياء الليل ، ولكن قيام الليل عسير على الخلق إلا من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهرا وباطنا . فأما الظاهرة فيراها الغزالى أربعة أمور : أن لا يكثر الاكل (فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام) وأن لا يتعب نفسه بالنهار فى الاعمال التى تعيا بها الجوارح وتضعف بها الاعصاب ، (فان ذلك أيضا مجلبة للنوم) وأن لا يترك القيلولة بالنهار (فانها سنة للاستعانة على قيام الليل) ، وأن لا يحتقب الاوزار بالنهار فان ذلك مما يقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة لان الخير يدعو الى الخير والشر يدعو الى الشر والقليل من كل واحد منهما يجر الى

الكثير. وأما الميسرات الباطنة فيراها الغزالى أربعة أمور أيضا: سلامة القلب عن الحقد وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا وخوف غالب يلزم القلب مع قصر الامل، وان يعرف فضل قيام الليل حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه الى ثوابه، والحب لله وقوة الايمان بان فى قيامه لايتكلم بحرف الا وهو مناج به ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة مايخطر بقلبه. ويقول الغزالى ان الاوراد تختلف باختلاف الاحوال: فالعابد المتجرد للعبادة الذى لاشغل له غيرها أصلا، ترتيب أوراده ان يستغرق أكثر اوقاته اما فى الصلاة أو فى القراءة أو فى التسبيحات. أما العالم فانه يحتاج الى المطالعة للكتب والى التصنيف والافادة ويحتاج الى مدة لها لامحالة، فيجب ان يعلم هو والمتعلم (والوالى مثل الامام والقاضى) أن الاشتغال بالعلم (وحاجات المسلمين واغراضهم على وفق الشرع وقصد الاخلاص) أفضل من الاشتغال بالاذكار والنوافل. أما المحترف الذى يحتاج الى الكسب لعياله، فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات فى العبادات، بل ورده فى وقت الصناعة حضور

السوق والاشتغال بالكسب ؛ ولكن ينبغى ان لاينسى ذكر الله تعالى فى صناعته بل يواظب على التسبيحات والاذكار وقراءة القرآن. وأما الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذى اصبح همه واحدا ؛ فلا يحب الا الله تعالى ولا يخاف الا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر فى شىء الا ويرى الله تعالى فيه ، فكل ورده حضور القلب مع الله تعالى فى كل حال : فلا تتميز عنده عبادة من عبادة .

٤٢ – ويقول الغزالى ان آداب الدعاء هى : –

(١) أن يترصد لدعائه الاوقات الشريفة (كأيام رمضان ويوم الجمعة ووقت السحر) . وأن يغتنم الاحوال الشريفة (كخلف الصلوات وفى الصيام) .

(٢) أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض ابطيه ؛ ثم يمسح بهما وجهه فى آخر الدعاء ، ولا يرفع بصره الى السماء ؛ وأن يخفض الصوت بين المخافتة والجهر (٣) أن لا يتكلف السجع فى الدعاء ؛ فان حال الداعى ينبغى أن يكون حال تضرع

والتكاف لايناسبه ، وأن يتضرع ويخشع ويرغب ويرهب، وأن يجزم الدعاء ويوقن بالاجابة ، وأن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا ، وأن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل ، فلا يبدأ بالسؤال

(٤) الأدب الباطن

وهو الاصل فى الاجابة : التوبة ورد المظالم والاقبال على الله عز وجل بكنه الهمة . هذا ويجب الاستغفار اتباعا لقوله تعالى « والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » والصلاة على النبي اذ قال تعالى « أن لله وملائكته يصلون على النبي ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ».

٣ – ويلاحظ أن الغزالى أورد صورا كثيرة للدعاء ونماذج عدة للأوراد ، وأكبر ظني أنه يكفى مثلا أن تعرف فى باب الدعاء لم تدعو ربك وكيف تدعوه وبأى معنى من معانى الخضوع يجب أن تلجأ اليه ، ولا ضرورة لأن تتبع لفظا معينا أو عبارة خاصة ، وكذلك يكفى أن تعرف أنه يجب أن تذكر ربك بلسانك وقلبك ، ولامعنى لان

تقييد نفسك بلفظ خاص فى الذكر أو بعبارات خاصة أو بعدد معين من العبارات ، لان الصلة بين العبد وربه يجب أن تكون صلة خضوع مجردة عن الكيف والكم والزمان والمكان ؛ فعلى العبد أن يخضع لربه أينما وجد وأنى وجد ؛ وعليه أن يذكره أينما كان وأنى كان ؛ وقد تكون كلمة « تبارك الله أحسن الخالقين » عند رؤية جمال أو « سبحان الله » عند شعورك بروعة الجلال والكمال ، أو « حسبنا الله » عند مايعتدى عليك ذوو الظلم والضلال ، أو « إنا لله وانااليه راجعون » عند ماتصاب فى نفسك أومالك أوولدك أو« الحمد لله الذى أبعد عني الاذى وعافانى » بعدقضاءالحاجة، أوباسمك ربى انى وضعت جنبي وبك ارفعه فى احب الساعات اليك » عند النوم ،أو «الحمدلله الذى احيانى بعد ماأماتني واليه النشور » عند اليقظة ، خير عند ربك من ذكر ألفاظ أو أوراد أواحياء ليال مع كذا من الالفاظ والعبارات ،لان الله رب القلوب ورب المعانى ، يجب ان تشعر القلوب بمعانى ذكره وحبه ، فتذكر الألسنة الفاظ هذه

المعانى ! ! . . . والغزالى نفسه قال مايؤيد هذا المعني اذ قال عند حديثه عن شروط الارادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد فى سلوك سبيل الرياضه ، ان المريد اذا قال مثلا الله الله أو سبحان الله سبحان الله أو مايراه الشيخ من الكلمات « فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك ، ثم لايزال يواظب عليه حتى يسقط الاثر على اللسان وتبقى صورة اللفظ فى القلب ، ثم لايزال كذلك حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه قد فرغ عن كل ماسواه » .

وسنرى فى الفصل الآتى أن محبة الله العبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصى عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه ، وأما محبة العبد لله فهو ميله الى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه فاقد له ، وعلامة محبة الله للعبد ان يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره .

الفصل الرابع

حب الله

ثانياً ـ اسباب الحب : ويقول الغزالى انه لا يتصور رغبة الا بعد معرفة وادراك : اذا لا يحب الانسان الا ما يعرفه ، (والحب من خاصية الحى المدرك) ، وكل ما فى ادراكه من المدركات لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ومعنى كونه محبوبا ان فى الطبع ميلا اليه ، فان تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقا . فالحب اذن ينقسم بحسب انقسام المدركات والحواس ، فلكل حاسة ادراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة فى بعض المدركات ، وللطبع بسبب تلك اللذات ميل اليها ، فلذة العين فى الابصار وادراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ، ولذة الاذن فى النغمات الطيبة الموزونة ، ولذة الشم فى الروائح الطيبة ، ولذة الذوق فى الطعوم ، ولذة اللمس فى اللين والنعومة . ويقول الغزالى بوجود

obeikandi.com

حس سادس (به ندرك أعمال الصور الباطنة من خلال الخير)
ويعبر عن هـذا الحس اما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو
البصيرة الباطنة ، و « البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر
والقلب أشد ادراكا من العين وجمال المعانى المدركة بالعقل
أعظم من جمال الصور الظاهرة للابصار ، فتكون لامحالة
لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الالهية التى تجل
عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم
والعقل الصحيح اليه أقوى ، ولامعنى للحب إلا الميل لما فى
ادراكه لذة ، فلا ينكر اذا حب الله تعالى إلا من قعد به
القصور فى درجة البهائم فلا يجاوز ادراك الحواس أصلا . »

ولكى يبين الغزالى تحقيق معني محبة العبد لله تعالى
بين لنا أسباب المحبة عموما ثم ذكر أدلة وجودها بل قوة
هذه الادلة فى الله ، ونرى تسهيلا للقارىء أن نجمع بين كل
دليل وسببه :

فالغزالى يقول أن المحبوب الاول عند كل حى نفسه
وذاته ، ومعني حبه لنفسه أن فى طبعه ميلا الى دوام وجوده

ونفرة عن عدمه وهلاكه (وهو لايحب الموت والعدم المحض الا لمقاساة ألم فى الحياة ؛ ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء) ، وكما أن دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضا محبوب (لان الناقص فاقد للكامل والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود هو هلاك بالنسبة اليه ؛ والهلاك والعدم ممقوت) فاذا المحبوب الاول للانسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه ؛ والانسان يحب هذه الاشياء لا لاعيانها بل لارتباط حظه فى دوام الوجود وكماله بها (فيحب ولده لانه يخلفه فى الوجود بعد عدمه ، ويحب أقاربه وعشيرته لانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكمالهم) .

ومن عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لاوجود له من ذاته وانما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله تعالى والى الله وبالله ، « فاذا كان حب الانسان نفسه ضروريا فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا فى أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضا ضرورى ، ومن

خلا عن هذا الحب فلانه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته » .

وثانى أسباب الحب هو الاحسان ،فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب (اضطرارا لايستطاع دفعه) على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها ، ولذا قد يحب الانسان الأجنبي الذى لاقرابة بينه وبينه ولاعلاقة ، وهذا اذا حقق يرى الغزالى أنه يرجع الى السبب الاول ، فان المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة الى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التى بها يتهيأ الوجود ، الا أن الفرق أن أعضاء الانسان محبوبة لان بها كمال وجوده وهى عين الكمال المطلوب ، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له (كالطبيب الذى يكون سببا فى دوام صحة الاعضاء والاستاذ الذى يكون سبب العلم) ، ولذا لايحب لذاته تحقيقا بل لاحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال

زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد. ولو عرف الانسان حق المعرفة لعلم ان المحسن اليه هو الله تعالى فقط ؛ وان الاحسان من الناس غير متصور الا بالمجاز (فالله المحسن هو الذى اضطر المحسن اليك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة الى الفعل ؛ ـ اما لغرض آجل وهو الثواب أو عاجل وهو المنـة والاستسخار أو الثناء والصيت والاشتهار بالكرم والسخاء أو جذب قلوب الخلق الى الطاعة والمحبة ـ واما اياه ذواسطة يصل بها احسان الله اليك ، وصاحب اليد مضطر فى ذلك ؛ ثم ان الله أنعم على العالمين احسانا اليهـم ولاجلهم لا لحظ وغرض يرجع اليه فانه يتعالى عن الاغراض) « فان كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف الا الله تعالى اذ الاحسان من غيره محال ، فهو المستحق لهذه المحبة وحده » .

ثم ان الله هو المحسن الى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق بايجادهم وتكميلهم وترفيههم وتنعيمهم ، فالحب لهذه العلة لغيره أيضا جهل محض .

وثالث أسباب الحب أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه (وذلك كحب الجمال والحسن، فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال لان ادراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها . وقضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لاجلها . والخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية، وكذلك استلذاذ النظر الى الانوار والازهار والاطيار المليحة الالوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل) ، فان ثبت ان الله جميل كان لامحالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله جميل يحب الجمال » . والحسن الاغلب حسن الابصار وأكثر التفات الناس الى صور الاشخاص (من تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك) ،ويقول الغزالي ان هذا خطأ ظاهر « فان الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر،

وان كل شيء جماله وحسنه أن يحضر كماله اللائق به الممكن له ، فاذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال ، وان كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر » .

ومن أمثلة جمال الصور الباطنة جمال العلم والقدرة والكمال : والله هو أجل المعلومات ؛ فاحسن العلوم وأشرفها معرفته ، وكل ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به ، فان كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا وكان هو في نفسه زينة وكمالا للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى ، إذ معلوماته لانهاية لهـا ومعلومات الخلق متناهية . وكذلك القدرة إذ غاية الانسان أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الانس في بعض الامور ، وهو مع ذلك لايملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ضرا ولا نفعا ، فضلا عما لاتتعلق به قدرته من ملكوت السموات والارض ، فلا قدرة له على ذرة منها ، وماهو قادر عليه من نفسه فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق اسبابه والممكن له من ذلك : فيستحيل

أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك. ولا يتصور كمال التقدس والتنزه الا للواحد الحق ، وأن كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا هو عين العيب والنقص ، فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال الا بقدر ما أعطاه الله ، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب ، فهذ الوصف ان كان جمالا وكمالا محبوبا فلا تتم حقيقته الا له ، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالاضافة الى ما هو أشد منه نقصانا (كالانسان بالاضافة الى الحيوان) ، فالجميل المطلق هو الله . فاذا ليس حب الانسان مقصورا على من أحسن اليه بل المحسن فى نفسه محبوب وان كان لا ينتهى قط احسانه الى المحب، لان كل جمال حسن فهو محبوب، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة ، كان حبه للمعانى الباطنة أكثر من حبه للمعانى الظاهرة .

وخامس اسباب الحب (اذ رابعها هو لذة جمال المعانى

والصور) هو المناسبة الخفية (تناسب الأرواح) بين المحب والمحبوب ، والتعارف والتناسب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لاترجع الى المشابهة فى الصور والاشكال بل الى معان باطنة ، هى قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها بالاقتداء والتخلق باخلاق الربوبية وذلك فى اكتساب محامد الصفات ، على ان الروح أمر ربانى « قل الروح من أمر ربى » ، «فاذا سويته ونفخت فيه من روحى» وقد خلق الله سبحانه آدم على صورته كما رمز النبي صلى الله عليه وسلم (حتى ظن القاصرون ان لاصورة الا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا) وهذا هو أعظم اسباب الحب وأقواها .

٤٥ـ المستوى المحبة هو الله وحده : ويقول الغزالى انه لو اجتمعت أسباب الحب فى شخص واحد ، تضاعف الحب لامحالة ، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال فى نفسها ، فلن كانت هذه الصفات

فى أقصى درجات الكمال ، كان الحب لا محالة فى أعلى الدرجات ولا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه ، لانها مجتمعة فى حقه تعالى بجملتها ولا يوجد فى غيره الا آحادها ، وهى حقيقة فى حقه ووجودها فى حق غيره وهم وتخيل ومجاز محض لا حقيقة له » .

٤٦ – لذة معرفة الله : ويقول الغزالى ان اللذات تابعة للادراكات ، والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذتها فى نيلها لمقتضى طبعها الذى خلقت له ، ويقول ان كذلك فى القلب غريزة (تسمى النور الالهى أو نور الايمان واليقين يدرك القلب به المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة) مقتضى طبعها المعرفة والعلم وهى لذتها (وتختلف باختلاف نوع العلم وشرفه ، وشرفه بقدر شرف المعلوم) . ويخرج الغزالى من ذلك بأن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات (من لذة الشهوة ولذة سائر الحواس الخمس) ، فان اللذات مختلفة بالنوع (كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع) وبالضعف والقوة (كمخالفة لذة النظر الى

الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر الى مادونه في الجمال) وانما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها (كأن أرى النظر الى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها ألذ من استنشاق روائح طيبة لانها مؤثرة عندى) . وأن اللذات إما ظاهرة (كلذة الحواس) وإما باطنة (كلذه الكرامة والعلم) ، والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة ، فلذة معرفة الله تعالى ألذ من الرياسة التى هى أعلى اللذات الباطنة الغالبة على الخلق .

٤٧ ـ ويقول الغزالى ان المدركات تنقسم الى مايدخل فى الخيال (كالصور المتخيلة والاجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات) والى مالا يدخل فى الخيال (كذات الله تعالى وكل ماليس بجسم كالارادة) ؛ ومن رأى انسانا ثم غض بصره وجد صورته حاضرة فى خياله كأنه ينظر اليها ولكن اذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ، ولا ترجع التفرقة الى اختلاف بين الصورتين لان الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة وانما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف ،

فان صورة المرئى صارت بالرؤية أتم انكشافا ووضوحا، فالخيال أول الادراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف (لا لانه فى العين بل لانه ادراك كامل) . ولمعرفة وادراك المعلومات التى لا تتشكل فى الخيال درجتان احداهما أولى والثانية استكمال لها ، وبين الأولى والثانية من التفاوت فى مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئى فيسمى الثانى أيضا بالاضافة الى الاول مشاهدة ولقاء ورؤية فلابد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، ومالم ترتفع كان الادراك الحاصل مجرد التخيل ، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وماغلبت عليها من الصفات البشرية، فانها لا تنتهى الى المشاهدة واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة ، فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وان كانت متفاوتة ، فمنها ماتراكم عليه الخبث والصدأ وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ، ومنها مالم ينته الى حد الرين والطبع

ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النـار عرضا يقمع منـه الخبث الذى هو متدنس به ، فاذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها يتجلى له الحق سبحانه وتعالى تجليا يكون انكشاف تجليه بالاضافة الى عامه كانكشاف تجلى المرآة بالاضافة الى ماتخيله ، وهـذه المشاهدة والتجلى هى التى تسمى رؤية (من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة) ، ولايفوز بدرجـة النظر والرؤية إلا العارفون فى الدنيا (والتجلى على درجات متفاوتة كالمعرفة) ، فما صحبه من المعرفـة هو الذى يتنعم به بعينه فقط إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق اذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقـدر معرفته ، فأصل السعادات هى المعرفة « والذين آمنوا أشد حبا لله » .

٤٨ ـ وأصـل حب الله لاينفك عنه مؤمن لانه لاينفك عن أصل المعرفة ، ولـكن يرى الغزالى ان العبد

يكتسب حب الله تعالى فى الدنيا واستيلاءه حتى ينتهى الى العشق بسببين : قطع علائق الدنيا واخراج حب غير الله من القلب « وماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » ، وان الواصلين للمعرفة ينقسمون الى الاقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره ، والى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالافعال ثم يترقون منها الى الفاعل .

٤٩ ـ وأظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها الى الافهام وأسهلها على العقول ؛ يشهد له بالضرورة كل مانشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة ، بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا وحركاتنا وسكناتنا . ويرى الغزالى أنا نرى الأمر غير ظاهر لانبهار العقول ودهشتها عن ادراكه ، لان ماتقصر عن فهمه عقولنا له سببان : خفاؤه فى نفسه وغموضه وتناهي وضوحه ، إذ عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الالهية فى غاية الاشراق والاستنارة وفى

غاية الاستغراق والشمول ، فصار ظهوره سبب خفائه .
ومن قويت بصيرته لايرى إلا الله تعالى ولايعرف غيره ،
فيعلم أن ليس فى الوجود إلا الله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته
فهى تابعة له فلاوجود لها بالحقيقة دونه وانما الوجود للواحد
الحق الذى به وجود الافعال كلها ، ومن هذا حاله فلاينظر
فى شىء من الافعال إلا ويرى الفاعل ويذهل عن الفعل
فكل العالم تصنيف الله فمن نظر اليه وعرفه وأحبه من
حيث أنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا فى الله ولا عارفا إلا بالله
ولا محبا إلا له وكان هو الموحد الحق الذى لايرى إلا الله .

٥٠ ـ معنى الشوق الى الله : كل محبوب يشتاق اليه
فى غيبته لامحالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق اليه ، فان
الشوق طلب وتشوف الى أمر ، والموجود لا يطلب ، ولكن
الشوق لايتصور الا الى شىء ادرك من وجه ولم يدرك
من وجه (وأما مالايدرك أصلا فلا يشتاق اليه ، فان لم ير
شخصا ولم يسمع وصفه لايتصور أن يشتاق اليه) وما أدرك
بكماله لايشتاق اليه وكمال الادراك بالرؤية ، فمن كان في

مشاهدة محبوبه مداوما للنظر اليه لايتصور أن يكون له شوق (فمن غاب عنه معشوقه مثلا وبقي في قلبه خياله فيشتاق الى استكمال خياله بالرؤية ، فلوا محى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق اليه ولو رآه لم يتصور أن يشتاق في وقت الرؤية ، وكذلك من يعلم ان لمحبوبه عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق الى ان ينكشف له مالم يراه قط) . ويقول الغزالى ان الوجهين جميعا (استكمال الوضوح ونهاية المعرفة) متصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فان ما اتضح للعارفين من الامور الالهية وان كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق ويكون مشوبا بشوائب التخيلات وينضاف اليها شواغل الدنيا ، وكمال الوضوح بالمشاهدة وتمام اشراق التجلى ولايكون ذلك الا في الآخرة وذلك بالضرورة يوجب الشوق (وذلك ينتهى في الدار الآخره باللقاء والمشاهدة) ثم ان الامور الالهية

لانهاية لها فتبقى أمور لانهاية لها غامضة ، فيتشوق العارف الى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل له مما بقى من المعلومات التى لم يعرفها أصلا لامعرفة واضحة ولامعرفة غامضة (وهذا الشوق لانهاية له فى الدنيا ولا فى الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للعبد فى الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لان ذلك لانهاية له) .

٥١ — معنى محبة الله للعبد : قال الله تعالى « يحبهم ويحبونه » ، وقد اشترط للمحبة غفران الذنب فقال « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ويقول الغزالى ان الوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع ، فكان استعمال لفظ الحب فى حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل ، والمحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس الى موافق ملائم وهذا انما يتصور فى نفس ناقصة فان مايوافقها تستفيد بنيله كمالا فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى ، فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن

فى حق الالهية ، وليس فى الوجود إلا ذاته وأفعاله ، فهو اذا لايحب الا نفسه وما ورد من الالفاظ فى حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه الى كشف الحجاب عن قلب العبد حتى يراه بقلبه والى تمكينه إياه من القرب منه والى ارادته ذلك به فى الأزل ، وقرب كل واحد من الله بقدر كماله ، وسلوك العبد فى درجات الكمال متناه ولاينتهى إلا الحد محدود ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لانهاية له أيضا لاجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال .

٥٣ ــ علامات محبة العبد لله : ويقول الغزالى ان ثمار المحبة تظهر فى القلب واللسان والجوارح ، وهى كثيرة منها : حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة فى دار السلام وأن يكون مؤثرا ماأحبه الله تعالى على مايحبه فى ظاهره وباطنه ، وأن لايكون له تنعم بغيره ، وأن يجتنب اتباع الهوى ، (والمعصية لاتخرجه عن الحب ولكن تخرجه عن كماله) ، وأن لايفتر لسانه عن ذكر الله ولايخلو عنه قلبه وذكر مايتعلق به من كلام ورسل وماينسب اليه ، وحب

جميع الخلق لانهم خلقه ، وأن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه ، وأن لا يطمئن إلا بالله « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، وأن لا يتأسف على مايفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالتوبة ، وأن يستقبل كل شيء بالرضى ويذكر قوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » ، وأن يتنعم بالطاعة (ولا يستثقلها) ويسقط عنه تعبها ، وأن يكتم الحب ويجتنب الدعوى ويتوقى من اظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب واجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره ، وأن يأنس بالله ويرضى بكل حكم نازل . وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك ، بل ادراك العظمة يوجب الهيبة كما أن ادراك الجمال يوجب الحب ، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم أشد من بعض ، فأولها خوف الاعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد منه خوف الابعاد والمقت .

٥٣ – **معنى الانس بالله** : ويقول الغزالى أن الانس والخوف والشوق من آثار المحبة ، الا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره ومايغلب عليه فى وقتـه « فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب الى الطلب وانزعج له وهاج اليه وتسمى هذه الحالة فى الانزعاج شوقا وهو بالاضافة الى أمر غائب ، واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت الى مالم يدركه بعد استبشر القلب بما يلاحظ فيسمى استبشاره انسا ، وأن كان نظره الى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر امكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا » . ويقول الغزالى ان علاقة الانس الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم فان خالط فهو كمنفرد فى جماعة وحاضر فى سفر وغائب فى حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر .

٥٤ ـ الرضى بقضاء الله : وقد قال تعالى « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ، ويقول الغزالى ان الرضى ثمرة من ثمار المحبة ، والحب يورث الرضى بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين : (١) أن يبطل الاحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس ، فالعاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم به لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه ، هذا اذا أصابه من غير حبيبه فكيف اذا أصابه من حبيبه ، واذا تصور هذا فى ألم يسير بسبب حب خفيف تصور فى الالم العظيم بالحب العظيم ، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال .

أو (٢) أن يحس ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له بعقله وان كان كارها بطبعه (فمن يسافر فى طلب الربح يرضى بمشقة السفر ، وهو هنا موقن بأن ثوابه الذى أدخر له فوق مافاته) . ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب

في مراد محبوبه ورضاه لالمعني آخر وراءه (فما ظنك بقلوب وقعت بين جمال الله وجلاله؟!) .

٥٥ - ويقول الغزالى ان الدعاء غير مناقض للرضى ولايخرج صاحبه عن مقام الرضى وكذلك كراهة المعاصى ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعى فى ازالتها بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر لايناقضه أيضا ، لأن الله تعبدنا بهما . وقد التبس هذا على قوم حتى رأوا السكوت على المنكرات مقاما من مقامات الرضى وسموه حسن الخلق وهو جهل محض ؛ بل الرضى والكراهة يتضادان اذا تواردا على شىء واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد فى شىء واحد أن يكره وجه ويرضى به من وجه ، فكذلك المعصية لها وجهان : وجه الى الله تعالى من حيث أنه فعله واختياره وارادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما الملك الى مالك الملك ورضى بما يفعله فيه ، ووجه الى العبد من حيث أنه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث ساط عليه أسباب البعد والمقت فهو

من هذا الوجه منكر ومذموم . ويقول الغزالى ان هذا كله مستمد من سر القدر الذى لارخصة فى افشائه : وهو ان الشر والخير كلاهما داخلان فى المشيئة والارادة : ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى : فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال انهما جميعا منه من غير افتراق فى الرضى والكراهة فهو أيضا مقصر . وبهذا يعرف أيضا ان الدعاء بالمغفرة وسائر الاسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضى بقضاء الله تعالى : فان الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف . ويقول الغزالى ان الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ومذمتها لايقدح فى الرضى إذ أنه ليس فرارا من القضاء ، بل من القضاء الفرار مما لابد من الفرار منه . فمن الافضل رجل يحب الموت شوقا الى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمته ورجل قال لاأختار شيئا بل أرضى بما اختاره الله ؟ ! .. صاحب الرضى أفضلهم لانه أقلهم فضولا .

الفصل الخامس

مراقبة الله

٥٦ ـ المحاسبة والمراقبة : قال تعالى « وتضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » ، وقال « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، ويقول الغزالي ان مطلب العقل وربحه تزكية النفس « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ، وهو يحتاج الى مشارطتها أولا فيرشدها الى طرق الفلاح ويجزم عليها الامر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ثم بعد الفراغ ينبغي ان يحاسبها . والمحاسبة تكون تارة بعد العمل وتارة قبله للتحذير ، ومعناه وزن الامور اولا وتقديرها والنظر فيها بتدبر ثم الاقدام عليها فمباشرتها ، ولا يبقى بعد

ذلك الا المراقبة للنفس عند الخوض فى الاعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فانها ان تركت طغت وفسدت « ان الله كان عليكم رقيبا » .

٥٧ — ويقول الغزالى ان حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهم اليه ؛ ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب ، أما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته اليه وملاحظته إياه وانصرافه اليه ، وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت . والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون الى الصديقين والى أصحاب اليمين ؛ فمراقبة الصديقين هى مراقبة التعظيم والاجلال وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال فلايبقى فيه متسع للالتفات الى الغير أصلا ، وهذه مراقبة مقصورة على القلب ؛ أما الجوارح فانها تتعطل عن التلفت الى المباحات فضلا عن

المحظورات واذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج الى تدبير وتثبيت فى حفظها على سنن السداد والاستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذى صار همه هما واحدا فهذا لا يحتاج الى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لا تتحرك إلا بما هو فيه . أما الورعون فهم قوم غلب يقين اطلاع الله (على ظاهرهم وباطنهم) على قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت الى الاحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة ، وقد غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، فانهم يرون الله فى الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون الى انتظار القيامة ، ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته (بأن يسأل نفسه لم ؟ وكيف ؟ ولمن ؟) عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى نفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر

فيه وعن الهم به (فان الخطرة الاولى فى الباطل اذا لم تدفع أورثت الرغبة ،فالهم،فجزم القصد ، فالفعل،فالبوار والمقت).
ويقول الغزالى ان العبد لايخلو اما أن يكون فى طاعة أوفى معصية أوفى مباح : فمراقبته فى الطاعة بالاخلاص والاكمل ومراعاة الادب وحراستها من الآفات ، وان كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر ، وان كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها والصبر على البلية .

٥٨ — ويقول الغزالى ان العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق ، فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، فيحاسبها على الفرائض أولا فان أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها فى مثلها وان فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وان أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وان ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ومعاقبتها ليستوفى منها مايتدارك به مافرط ،

وينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ماتكلم به طول النهار ، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته لم سكت ؟ وعن سكونه لم سكن ؟، فاذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه ، فاذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ، ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما فيوما وساعة فساعة في جميع الاعضاء الظاهرة والباطنة ، فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الانفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة .

ويقول الغزالي أنه مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى ، فلا ينبغي أن يهملها فانه ان أهملها عسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكها ، بل ينبغي أن يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته .

٥٩ ـ النية والاخلاص والصدق : ويقول الغزالى ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معني واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل ، العلم يقدمه لانه أصله وشرطه ، والعمل يتبعه لانه ثمرته وفرعه ؛ وذلك لان كل عمل (حركة وسكون اختيارى) لايتم الا بثلاثة أمور علم وارادة وقدرة ، لانه لايريد الانسان مالايعلمه ، فلابد وأن يعلم ولايعمل مالم يرد ، فاذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ولابد أن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الارادة وتحقق الميل (فمعنى الارادة انبعاث القلب الى مايراه موافقا للغرض أما فى الحال أوفى المآل) واذا انبعثت الارادة انتهضت القدرة لتحريك الاعضاء ، والنية عبارة عن الصفة المتوسطة (وهى الارادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل الى ماهو موافق للغرض اما فى الحال واما فى المآل) فالمحرك الاول هو الغرض المطلوب وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوى ، والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك

الاعضاء هو العمل ، إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد (خالص عن مشاركة غيره وممازجته) وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد ، واذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بانهاض القدرة (وهذا مرافقة للبواعث) وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع (وهذا مشاركة فى الباعث) وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا (وهذا معاونة للباعث) . فالعمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ، ولذلك قيل انما الاعمال بالنيات لانها تابعة لاحكم لها فى نفسها وانما الحكم للمتبوع .

٦ — وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله » ؛ ويقول الغزالى ان معناه ان نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته والغرض ان للعبد اختيارا فى النية وفى العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرهما (لأن اعمال القلب على الجملة افضل من حركات الجوارح ، والنية ميل القلب الى الخير وارادته

له ، وغرضنا من الاعمال بالجوارح ان يعود القلب ارادة الخير ويؤكد فيه الميل ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيرا بالاضافة الى الغرض لانه متمكن من نفس المقصود ، فهم قلبه هو ميل الى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهى غاية الحسنات وانما الاتمام بالعمل يزيدها تأكيدا) .

ويقول الغزالى ان الاعمال وان انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك ، فهى ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات :

(١) المعاصى : وهى لاتتغير عن موضعها بالنية ، فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « انما الاعمال بالنيات » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية (كمن يبني مسجدا بمال حرام) ، إذ النية لاتؤثر فى اخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية ، بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فان عرفه فهو معاند للشرع وان جهله فهو عاص بجهله اذ طلب

العلم فريضة على كل مسلم ، والخيرات انما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا ؟ ! هيهات ! ولكن للنية دخل فيها وهو أنه اذا انضاف اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها . (٢) الطاعات : وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها ، أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير (فان نوى الرياء صارت معصية) ، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة ، فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب اذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها (٣) المباحات : وما من شىء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات (فالطيب مثلا مباح ولكن هل يقصد به التنعم بلذات الدنيا أو اظهار التفاخر بكثرة المال أو يقصد به رياء الخلق فيذكر بطيب الرائحة أو ليتودد به الى قلوب النساء الاجنبيات اذا كان مستحلا للنظر اليهن ولأمور أخرى لاتحصى ، وكل هذا يجعل

التطيب معصية الا القصد الأول وهو التلذذ والتنعم فإن ذلك ليس بمعصية الا أنه يسأل عنه . وأما النيات الحسنة فان ينوى به اتباع السنة يوم الجمعة وتعظيم المسجد فلا يدخله إلا طيب الرائحـة وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا بروائحه ودفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدى الى ايذاء مخالطيه وأن يحسم باب الغيبة عن المغتابين بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر)

٦١ – ويقول الغزالى « أن النية ليست حديث نفس أوحديث لسان أوفكر أوانتقالا من خاطر الى خاطر بل هى انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ماظهر لها ان فيه غرضها اما عاجلا واما آجلا ، والميل اذا لم يكن لايمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة ، اذ لاطريق الى اكتساب صرف القلب الى الشيء وميله اليه وتوجهه نحوه الا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لايقدر عليه وانما تنبعث النفس الى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق

للنفس الملائم لها ، ومالم يعتقد الانسان أن غرضه متوط بفعل من الافعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده فى كل حين واذا اعتقد فانما يتوجه القلب اذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن فى كل وقت ، والدواعى والصوارف لهـا أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالاعمال . والنية تتبع النظر فاذا تغير النظر تغيرت النية وهى روح العمل والعمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب ، وهى ليست قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعاث القلب » .

ونيات الناس فى الطاعات أقسام اذ منهم من يكون عمله اجابة لباعث الخوف (اتقاء النار) ومنهم من يعمل اجابة لباعث الرجاء (الرغبة فى الجنة) ، وأما عبادة ذوى الألباب فانها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله ، وثواب الناس بقدر نياتهم . ويقول الغزالى من حضرت له نية فى مباح ولم تحضر فى فضيلة فالمباح أولى

وانتقلت الفضيلة اليه وصارت الفضيلة فى حقه نقيصه لان الاعمال بالنيات (وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار فى الظلم، وربما تحضره نية فى الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل).

٦٢ — ويقول الغزالى ان كل شىء يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصا، والاخلاص يضاد الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين». والاخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وانما يكون ذلك فى القصود والنيات، ومهما كان الباعث واحدا على التجرد سمى الفعل الصادر عنه اخلاصا بالاضافة الى المنوى، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى عن جميع الشوائب. فمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر اما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج

عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق اليه الشرك (الخفى) . والباعث النفسى (حظوظ دنيوية وشهوات تستريح اليها النفس ويميل اليها القلب) اما أن يكون مثل الباعث الدينى أوأقوى منه أوأضعف ، والاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلايكون فيه باعث سواه وهذا لايتصور الا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لايحب الاكل والشرب أيضا بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث أنه ضرورة الجبلة فلايشتهى الطعام لانه طعام بل لانه يقويه على عبادة الله .

٦٣ — ويقول الغزالى ان أظهر مشوشات الاخلاص الرياء وأن الآفات المشوشة للاخلاص بعضها جلى وبعضها خفى وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ، وان العمل اذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس كان مشوبا ،

فاذا كان لم يرد به الا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب ؛ أما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب ؛ والمشوب يدل ظاهر الاخبار على أنه لاثواب له ؛ ويرى الغزالى ان ينظر الى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسى تقاوما وتساقطا وصار العمل لاله ولا عليه ، وان كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب الاقل من عقاب العمل الذى تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب؛ وان كان قصد التقرب أغلب بالاضافة الى الباعث الآخر فله ثواب بقدر مافضل من قوة الباعث الدينى ، فلا ينبغى أن يضيع قصد الخير بل ان كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة ، وان كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد . ويقول الغزالى تفسيرا لهذا « ان الاعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها ، فداعية الرياء من المهلكات وانما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات وانما قوتها بالعمل على

وفقها ، فاذا اجتمعت الصفتان فى القلب فهما متضادتان ، فاذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة ، واذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة ، وأحدهما مهلك والآخر منج ، فان كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة اذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما ، وان كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والادوية ولا ينفك عن أثر فى الجسد بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير فى انارة القلب أو تسويده وفى تقريبه من الله أو ابعاده » ، وفى الحديث « اتبع السيئة الحسنة تمحها » فاذا كان الرياء المحض يمحوه الاخلاص المحض عقيبه ، فاذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة . ومع هذا فيقول الغزالى انه لا ينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء ، إذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص ومهما ترك

العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا .

٦٤ – وقال الله تعالى « رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه » ويقول الغزالى ان لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان : (١) صدق فى القول : وهذا هو صدق اللسان ولا يكون الا فى الاخبار أو فيما يتضمن الاخبار وينبه عليه، والخبر إما ان يتعلق بالماضى أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . فمن حفظ لسانه عن الاخبار عن الاشياء على خلاف ماهى عليه فهو صادق ، ولكن لهذا الصدق كمالان أحدهما : الاحتراز عن المعاريض لانها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهيم الشىء على خلاف ماهو عليه فى نفسه ، الا ان ذلك مما تمس اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة فى بعض الاحوال وفى تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم وفى الحذر عن الظلمة وفى قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك، فمن اضطر الى شىء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق ويقتضيه الدين ، فاذا نطق به فهو

صادق وان كان كلامه مفهما غير ماهو عليه ، لأن الصـدق ماأريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه . ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين، ومن كان له زوجتان ومن كان فى مصالح الحرب ، والصدق ههنا يتحول الى النية فلا يراعى فيه الا صدق النية وارادة الخير ، فمهما صح قصده وصدقت نيتـه وتجردت للخير ارادته صار صادقا وصديقا (مبالغة فى الصدق) كيفما كان لفظه ، ثم التعريض فيـه أولى . والكمال الثانى أن يراعى معنى الصدق فى الفاظه التى يناجى بها ربه كقوله «وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض » فان قلبه ان كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيـا وشهواته فهو كذب ، وكقوله اياك نعبـد

(٢) صدق فى النية والارادة : ويرجع ذلك الى الاخلاص ، وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات الا الله تعالى ، فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النيـة وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا

(٣) صدق العزم: فان الانسان قد يقدم العزم على العمل (فيقول مثلا فى نفسه ان رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه أو بشطره) : فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة. فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة. فالصادق هنا هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ، بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات. (٤) صدق فى الوفاء بالعزم: ومراتب الصديقين فى العزائم تختلف ، فان النفس قد تسخو بالعزم فى الحال إذ لا مشقة فى الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة ، فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه (٥) صدق فى تحقيق العمل وهو صدق فى الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك

الاعمال ولكن بأن يستجر الباطن الى تصديق الظاهر (بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره) .

(٦) صدق فى تحقيق مقامات الدين كلها : وهو أعلى الدرجات وأعزها كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والحب وسائر هذه الامور (فان الصدق فى تمام حقيقتها لا فى ظهورها فحسب ، وقد يكون للعبد صدق فى بعض الامور دون بعض ، والصديق من كان صادقا فى الجميع مع اختلاف فى الدرجات)

٦٥ — مراقبة الله فى الحياة الدنيا : وقال تعالى « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » ، ويقول الغزالى فى ذم الغرور ان الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ماهو به ، والغرور هو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان ، فمن اعتقد انه على خير اما في العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم

مخطئون فيه وان اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق.

ويقول الغزالى فى ذم الدنيا أن كل ماليس لله فهو من الدنيا ، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا : والاشياء ثلاثة أقسام

(١) المعاصى والمحظورات وأنواع التنعمات فى المباحات وهى الدنيا المحضة المذمومة فهى الدنيا صورة ومعنى (ولا يتصور أن يكون ذلك لله)

(٢) ماصورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو الفكر والذكر والكف عن الشهوات (فاذا جرى ترك الشهوة مثلا سراً ولم يكن عليه باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهو لله ، وان كان الغرض منه حفظ المال أو الحمية لصحة البدن أو الاشتهار بالزهد ، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى)

(٣) ماصورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله وذلك كالاكل والنكاح وكل مايرتبط به بقاؤه وبقاء ولده ، فان كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا

وان كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه .
فاذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لاحاجة اليه لامر الآخرة ويعبر عنه بالهوى ، ويقول الغزالى « ان الخير أن لا يترك الانسان الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية ، أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد وأما الشهوات فيقمع منها مايخرج عن طاعة الشرع والعقل ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة بل يتبع العدل ، ولا يترك كل شىء من الدنيا ولا يطلب كل شىء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده » .

٦٦ — وقال الله تعالى « يأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » ، ويقول الغزالى عند بيان تفصيل آفات المال وفوائده ، ان المال مثل حية فيها سم وترياق ، ففوائده ترياقه وغوائله سمومه ، وأما فوائده الدينية فان ينفقه على نفسه اما فى عبادة (كالاستعانة على الجهاد) أوفى الاستعانة على عبادة (كالمطعم) ، وما يصرفه الى الناس من

صدقة ومروءة ووقاية عرض وأجرة استخدام، ومالا يصرفه الى انسان معين ولكن يحصل به خير عام (كبناء المساجد ودور المرضى)، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول الى العز والمجد بين الخلق وكثرة الاخوان والاعوان والكرامة فى القلوب . وأما آفات المال فدينية ودنيوية أما الدينية

(١) فان تجر الى المعاصى وارتكاب الفجور (فان الشهوات متفاضلة؛ والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن العصمة أن لا يجد؛ لان الانسان اذا استشعر القدرة على نوع من المعصية انبعثت داعيته؛ فان اقتحم مااشتهاه هلك، وان صبر وقع فى شدة اذ الصبر مع القدرة أشد) (٢) انه يجر الى التنعم فى المباحات، وأحسن أحواله أن يتنعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه فيصير التنعم مألوفا عنده ومحبوبا لا يصبر عنه ويجر البعض منه الى البعض، فاذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل اليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض فى المراءاة

والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الاخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه ، فان من كثر ماله كثرت حاجته الى الناس ومن احتاج الى الناس فلابد وأن ينافقهم ويعصى الله فى طلب رضاهم . (٣) يلهيه اصلاح ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ماشغل العبد عن الله فهو خسران ، فان أصل العبادات وسرها ذكر الله والتفكر فى جلاله وذلك يستدعى قلبا فارغا (وصاحب الضيعة مثلا يمسى ويصبح متفكرا فى خصومة الفلاح ومحاسبته الخ . .) . فان كان الانسان فقيرا فينبغى أن يكون قانعا منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت الى مافى أيديهم ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن ويقتصر على أقله قدرا وأخسه نوعا ويرد أمله الى يومه أو الى شهره ، فان تشوق الى الكثير أو طول أمله فاته عز القناعة وتدنس لامحالة بالطمع وذل الحرص وجره الحرص والطمع الى مساوى الاخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات ، ويقول الغزالى ان علاج هذا

obeikandi.com

العمل بالاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الانفاق (حيث لايكثر خرجه ويتسع انفاقه) ؛ واذا تيسر له فى الحال ما يكفيه فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعينه على ذلك قصر الامل والتحقق بأن الرزق الذى قدر له لابد وأن يأتيه وان لم يشتد حرصه ، وأن يعرف مافى القناعة من عز الاستغناء ومافى الحرص والطمع من الذل (وليس فى القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات) ؛ وأن يخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بالانبياء أعز أصناف الخلق عند الله . وان كان المال موجودا ، فيقول الغزالى أنه ينبغى أن يكون حاله الايثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل .

٦٧ – ويقول الغزالى فى بيان حقيقة الفقر ان الفقر عبارة عن فقد ماهو محتاج اليه ، أما فقد مالاحاجة اليه فلا يسمى فقرا ، وان كان المحتاج اليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا ، وكل موجود سوى الله تعالى فقير لانه محتاج الى دوام الوجود فى ثانى الحال ، ودوام وجوده

مستفاد من فضل الله تعالى وجوده ؛ فليس فى الوجود إلا غنى واحد وكل من عداه فانهم محتاجون اليه ليمد وجودهم بالدوام « والله الغني وأنتم الفقراء » ، ويقول الغزالى ان فقر العبد بالاضافة الى أصناف حاجاته لاينحصر لان حاجاته لاحصر لها ومن جملة حاجاته مايتوصل اليه بالمال ، وكل فاقد المال فانما نسميه فقيرا بالاضافة الى المال الذى فقده اذا كان ذلك المفقود محتاجا اليه فى حقه ، ثم يتصور أن يكون له ستة أحوال :

(١) الاستغناء : وهو أن يستوى عنده وجود المال وفقده

(٢) الزهد: هو أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله

(٣) الرضى : وهو أن يكون بحيث لايرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه

(٤) القناعة : وهو أن يكون وجود المال أحب اليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه

(٥) الحرص : وهو أن يكون تركه الطلب لعجزه

(٦) الاضطرار : وهو أن يكون والعياذ بالله مافقده من المال مضطرا اليه

والغزالى يريد من ذكر تلك الحالات أن يمهد لقوله أن الزهد فى الدنيا ان أريد به عدم الرغبة فى وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وان أريد به الرغبة فى عدمها فهو كمال بالاضافة الى درجة الراضى والقانع والحريص ونقصان بالاضافة الى درجة المستغنى : بل الكمال فى حق المال أن يستوى عندك المال والماء (وأنت محتاج الى كل منهما) ، وكثرة الماء فى جوارك لاتؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر ولاقلته تؤذيك إلا فى قدر الضرورة : فهكذا ينبغى أن يكون المال لان الخبز والماء واحد فى الحاجة وانما الفرق بينهما فى قلة أحدهما وكثرة الآخر ، واذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذى دبر به العالم ، علمت ان قدر حاجتك من الخبز يأتيك لامحالة مادمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء .

ويقول الغزالى ان الفقير القانع افضل من الغني الحريص الممسك وان الغني المنفق ماله فى الخيرات افضل من الفقير الحريص ، ويقول ان السؤال حرام فى الاصل وانما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة (لمأكل

أو ملبس أو مسكن) فان كان عنها بد فهو حرام لانه إظهار للشكوى من الله تعالى ، وفيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى ، وانه لاينفك عن ايذاء المسئول غالبا لانه ربما لاتسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه (وحد اباحة السؤال أن تعلم ان المسئول بصفة لو علم مابك من الحاجة لابتدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير الا فى تعريف حاجتك ـ بان تكون مشرفا على الهلاك ولم يبق لك سبيل الى الخلاص ولم تجد من يعطيك من غير كراهة واذى ـ فاما فى تحريكه بالحياء واثارة داعيته بالحيل فلا) .

٦٨ — حقيقة الصبر: ويقول الغزالى ان الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة (والهوى والكسل) ، فان ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ؛ ويقول ان الصبر نصف الايمان باعتبارين وعلى مقتضى اطلاقين (١) العمل بمقتضى اليقين اذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة الا بالصبر

(٢) ان يطلق على الاحوال المثمرة للاعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع مايلاقيه العبد الى ماينفعه فى الدنيا والآخرة (فيشكر) أو يضره فيهما (فيصبر).

والصبر ضربان ضرب بدنى (كتحمل المشاق بالبدن) وهو اما بالفعل (كتعاطى الاعمال الشاقة اما من العبادات أو من غيرها) واما بالاحتمال (كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة) وذلك قد يكون محمودا اذا وافق الشرع ، ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو صبر النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى (ويسمى عفة وضبطا للنفس ، وشجاعة ، وحلما ، وسعة صدر ، وكتمانا للسر وزهدا ، وقناعة ـ بحسب نوع المصبور عليه).

ويقسم الغزالى الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف تبعا لاحوال باعث الدين بالاضافة الى باعث الهوى الى ثلاثة (١) صبر الصديقين المقربين : وهو أن يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل اليه بدوام الصبر (٢) صبر الغافلين : أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة

باعث الدين فيسلم نفسه الى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة (٣) صبر

المجاهدين: وهو أن تكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهو اما ان يغلب جميع الشهوات أولا يغلب شيئا منها أو يغلب بعضها دون بعض .

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر الى مايشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه الا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا ، والى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بادنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر واذا دامت التقوى وقوى التصديق بما فى العاقبة من الحسنى تيسر الصبر وأورث ذلك مقام الرضى .

وينقسم الصبر باعتبار حكمه الى فرض (بالصبر عن المحظورات) ونفل (بالصبر عن المكاره) ومحرم (بالصبر على الاذى المحظور) ومكروه (بالصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع) .

ويقول الغزالى ان جميع مايلقى العبد فى هذه الحياة لايخلو من نوعين: مايوافق هواه(و هو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الاسباب وكثرة الاتباع والانصار وجميع ملاذ الدنيا)

وما لا يوافقه (وهو ما يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصى وما لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشفى من المؤذى بانتقام) وهو محتاج الى الصبر فى كل واحد منهما ؛ ومعنى الصبر على العافية أن لا يركن اليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه فى الفرح بها ولا ينهمك فى التنعم واللذة واللهو واللعب وان يرعى حقوق الله فى ماله بالانفاق ، وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق وكذلك فى سائر ما نعم الله به عليه ، وهذا الصبر متصل بالشكر .

٦٩ - شكر الله : والشكر نصف الايمان ؛ ويقول الغزالى ان الشكر لله لا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم ؛ والوسائط مسخرون من جهته (وأنه الشاكر والمشكور إذ الكل مصدره اليه واليه مرجعه ، وليس فى الوجود غيره إذ الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقى موجودا ؛ فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم

إلا واحد) ؛ أى أنك لاتشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه ، فان خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفا لابالنعمة ولا بالمنعم ؛ فلا تفرح بالنعم وحده بل وبغيره ؛ فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك ؛ ثم يقول الغزالى ان الحال المستمدة من أصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع ، هو أيضا فى نفسه شكر على مجرده كما أن المعرفة شكر ، ولكن انما يكون شكرا اذا كان حاويا شرطه وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لابالنعمة ولابالانعام (فيبعد عن معني الشكر اذا كان النظر مقصورا على الفرح بالنعمة من حيث أنها لذيذة وموافقة لغرضه ، ويدخل في معني الشكر الفرح بالمنعم لامن حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الانعام فى المستقبل) . ويقول الغزالى ان العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم يتعلق بالقلب (بقصد الخير واضماره لكافة الخلق) وباللسان (باظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه) وبالجوارح

(باستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصية) .

ويقول الله تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم » : ويقول الغزالى ان معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك اما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه ، ولتمييز مايحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان أحدهما السمع ومستنده الآيات والاخبار : الثانى بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار بادراك حكمة الله تعالى (الجلية أو الخفية) فى كل موجود خلقه ، إذ ماخلق شيئا فى العالم إلا وفيه حكمة ، فكل من استعمل شيئا فى غير الجهة التى خلق لها ولا على الوجه الذى أريد به فقد كفر فيه نعمة الله وعدل عن العدل ، (فمثلا الدراهم والدنانير خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدى ويكونا حاكمين بين الاموال بالعدل ، وعلامة معرفة المقادير مقومة للمراتب وحكمة أخرى وهى التوسل بهما الى سائر الاشياء لأنهما عزيزان فى أنفسهما ولا غرض فى أعيانهما ، ونسبتهما الى سائر الاموال

قسبة واحدة فمن ملكها فكأنه ملك كل شيء ، فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما ، فاذا من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ، وكل من اتخذ منهما آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة لأن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب منابهما فى حفظ المائعات عن أن تتبدد ، ولا يكفى الخزف والحديد فى المقصود الذى أريد به النقود ، وكل من عامل معاملة الربا فقد كفر النعمة وظلم لانهما خلقا لغيرهما لا لانفسهما إذ لا غرض فى عينهما فاذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة وانما يجوز بيع أحد النقدين بالآخر إذ أن أحدهما يخالف الآخر فى مقصود التوسل إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق فى الحاجات قليلا قليلا وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث أن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل فيه تاجر و

صاحب الجيد لايرضى بمثله من الردىء واذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فيجوز لانه لايقدم على هذا إلا مسامح قاصد للاحسان) .

ويقول الغزالى إن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ؛ ولكن النعمة بالحقيقة هى السعادة الاخروية وكل سبب يوصل اليها ويعين اليها إما بواسطة واحدة أو بوسائط ، وتسمية ماسواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التى لاتعين على الآخرة نعمة (والنعم إما نافعة فى الدنيا والآخرة كحسن الخلق : أو نافعة فى الحال ضارة فى المآل كالتلذذ باتباع الشهوات : أو مؤلمة فى الحال نافعة فى المآل كقمع الشهوات ، وتنقسم الاسباب الدنيوية الى مانفعه أكثر من ضرره كقدر الكفاية من المال والجاه والى ماضره أكثر من نفعه فى حق أكثر الاشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع والى مايكافىء ضره نفعه ، وهذه أمور تختلف باختلاف الاشخاص فرب انسان صالح ينتفع بالمال وان كثر فينفقه

فى سبيل الله ويصرفه الى الخيرات فيكون نعمة فى حقه ، ورب انسان يستضر بالقليل أيضا إذ لايزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة فيكون بلاء فى حقه . وتنقسم الخيرات الى مايؤثر لذاته كلذة النظر الى وجه الله تعالى وسعادة لقائه ، ومايقصد لغيره ولاغرض أصلا فى ذاته كالدراهم والدنانير لقضاء الحاجة ، ومايقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة . وتنقسم الخيرات باعتبار آخر الى ماتدرك راحته فى الحال وهو اللذيذ ومايفيد فى المآل وهو النافع ومايستحسن فى سائر الاحوال وهو الجميل ، ولهذا التقسيم ضربان مطلق اجتمع فيه الاوصاف الثلاثة كالعلم ، ومقيد جمع بعض هذه الاوصاف دون بعض ، فالنافع قد يكون مؤلما وقد يكون قبيحا وقد يكون نافعا من وجه وضارا من وجه وقد يكون ضروريا وقد يكون غير ضرورى. وتنقسم اللذات الى عقلية اختص بها كالعلم، وبدنية إما مشتركة مع بعض الحيوانات كلذة الاستيلاء والغلبة أو مشتركة مع جميعها (كلذة البطن والفرج) . وقسم الغزالى النعم تقسيما

حاويا لمجامعها الى ماهى غاية مطلوبة لذاتها والى ماهى مطلوبة لاجل الغاية التى هى سعادة الآخرة ويرجع حاصلها الى أربعة أمور بقاء لافناء له وسرور لاغم فيه وعلم لاجهل معه وغنى لافقر بعده وهى النعمة الحقيقية . وقسم الوسائل الى الاقرب الاخص كفضائل النفس والى مايليه فى القرب كفضائل البدن من صحة وقوة وجمال وطول عمر ، والى مايليه فى القرب ويجاوز الى غير البدن كالاسباب المطيفة بالبدن من المال والاهل وكرم العشيرة ، والى مايجمع بين هذه الاسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس (كتوفيق الله والرشد والتسديد والتأييد) . ويقول الغزالى أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة عن معرفة النعم ، ثم أنهم ان عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى اتمام الحكمة التى أريدت بها وهى طاعة الله عز وجل ، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين الاغلبة الشهوة واستيلاء الشيطان ، أما الغفلة عن النعم

فلها أسباب ، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لايعدون مايعم الخلق ويسلم لهم فى جميع أحوالهم نعمة فلذلك لايشكرون عليها لانها نعمة عامة للخلق مبذولة لهم فى جميع أحوالهم فلايرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلايعده نعمة ، ولاتراهم يشكرون الله على روح الهواء ولوأخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ، فان ابتلى واحد منهم ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها وهذاغاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم فى بعض الاحوال ، والنعمة فى جميع الاحوال أولى بأن تشكر فى بعضها ، فصار الناس لايشكرون الا المال الذى يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى ، والعلاج أن ينظر الانسان الى من دونه وأن يعرف أن النعمة (ظاهرة أو باطنة) اذا لم تشكر زالت ولم تعد .

٧٠ — ويقول الغزالى انه يرجع الصبر فى الدنيا الى ماليس ببلاء مطلقا بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور

أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر : والشيء الواحد قد يغتم به من وجه (فيصبر عليه) ويفرح به من وجه آخر (فيشكر عليه) ، وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها (١) ان كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها فيشكر اذ لم يكن أعظم منها في الدنيا (٢) انه كان يمكن أن تكون مصيبة في دينه ، (بكفر أو معصية أشد) ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح ، فمن اين تعلم أن غيرك أعصى منك ثم لعله قد أخرت عقوبته الى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله على ذلك ؟ !) (٣) ما من عقوبة الا وكان يتصور ان تؤخر الى الاخرة ، ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الاخرة تدوم وان لم تدم فلا سبيل الى تخفيفها بالتسلي ، ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيا (٤) ان هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لابد من وصولها

اليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة (٥) ان ثوابها اكثر ، فان مصائب الدنيا طرق الى الاخرة من وجهين أحدها الذى يكون به الدواء الكريه نعمة فى حق المريض ويكون المنع من اسباب اللعب نعمة فى حق الصبي ، فكذلك المال والاهل والاقارب والاعضاء حتى العين التى هى أعز الاشياء قد تكون سببا لهلاك الانسان فى بعض الاحوال ، بل العقل الذى هو اعز الامور قد يكون سببا لهلاكه ، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة الدينية ويشكره عليه . والوجه الثانى ان مواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب الى الدنيا واسبابها وأنسه بها ، وأما التألم فضرورى (والدواء النافع مؤلم) .

٧١ ـ مراقبة الله فى اللسان : وقد ذكر الغزالى فى آفات اللسان وجوب أن يتجنب الانسان الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمور الدين ، فمن قصر فى علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل ، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله (مثاله ماقاله حذيفة

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت وليقل ماشاء الله ثم شئت » ؛ وذلك لان فى العطف المطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام) ؛ وكذلك يجب أن يتجنب العوام السؤال عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة (لأن شأن العوام الاشتغال بالعبادات والايمان بما ورد به القرآن والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث) ، وكذلك يجب على الانسان أن يتجنب الكلام فيما لا يعنيه وفضول الكلام (الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة) والخوض فى الباطل (وهو الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الاغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة ، بل هو الخوض فى ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للوصول اليها من غير حاجة دينية الى ذكرها) والتقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات وماجرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة

وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت ، والتنطع هو التعمق والاستقصاء ، بل ينبغى أن يقتصر فى كل شيء على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم ، ولايدخل فى هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير افراط واغراب ، فان المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به ، والغناء والشعر وانشاد الشعر ونظمه ليس بحرام اذا لم يكن فيه كلام مستكره . وكذلك يجب مراقبة الله فى آفات اللسان الاخرى ، فمثلا يقول الغزالى ان علاج كف اللسان عن الغيبة هو أن يعلم أن تعرضه لسخط الله تعالى بها ، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته فانها تنقلها فى القيامة الى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه ، فان لم تكن له حسنات نقل اليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشبه عنده بآكل الميتة ، وينفعه أيضا أن يتدبر فى نفسه فان وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم

« طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » ومهما وجد عيبا فينبغى أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره بل ينبغى أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه فى التنزه عن ذلك العيب (ان كان يتعلق بفعله واختياره) كعجزه ؛ وان كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق ؛ واذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه فليشكر الله تعالى ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب جهل بنفسه ؛ وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له .

٧٢ — مراقبة الله فى الاكل والشرب : ونحن قوم نأكل لنعيش لا نعيش لنأكل واذا أكلنا لم نشبع ؛ فلا ينبغى أن يكون هم الانسان الاكل والشرب بل يجب أن يجاهد نفسه بالجوع والعطش تبعا للحديث الشريف ، ويقول الغزالى أنه يجب أن لا يأكل إلا حلالا ، لان العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار ، وأن يكون الطعام بعد كونه حلالا فى نفسه طيبا فى جهة مكسبه « كلوا من الطيبات » موافقا للسنة والورع ، لم يكتسب بسبب مكروه فى الشرع

ولا بحكم هوى ومداهنة فى دين ، وأن ينوى بأ كله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعا بالا كل (ولا يقصد التلذذ والتنعم بالا كل) وأن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ولا يجتهد فى التنعم وطلب الزيادة وانتظار الادم ، وفى هذا وفضيلة الا كل للعيش أو كما يسميها الغزالى فضيلة الجوع فهم صادق لمعنى الحياة الانسانية الحقة وتجريد لها من خسة شهوة البطن المادية المشاركة لها البهائم فيها ، اذ يرى الغزالى أن فى مجاهدة الجوع والعطش صفاء القلب وايقاد القريحة وانفاذ البصيرة (لان الشبع يورث البلادة ويعمى القلب ويكثر البخار فى الدماغ فيثقل القلب عن الجريان فى الافكار وسرعة الادراك) ، وبالجوع يرق القلب ويصفو ويزول البطر « فلا تنكسر النفس ولا تذل بشىء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتقف على عجزها وذلها إذ ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا بشربة ماء تأخرت عنه » ، وبه لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء ، وبه كسر شهوات

المعاصى كلها والاستيلاء على النفس الامارة بالسوء « فان منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ؛ ومادة القوى والشهوات لامحالة الاطعمة ، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة ؛ وان السعادة كلها فى أن يملك الرجل نفسه والشقاوة فى أن تملكه نفسه ، وأقل مايندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام » ، وبه يندفع النوم ويدوم السهر (لان من شبع شرب كثيرا ومن كثر شربه كثر نومه) « وفى كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب » ، وبه تتيسر المواظبة على العبادة (لان الاكل يمنع من كثرة العبادات لانه يحتاج الى زمان يشتغل فيه بالاكل وشراء الطعام وطبخه وغسل اليد والخلال وكثرة التردد الى بيت الماء لكثرة شربه) ؛ ويستفيد من قلة الاكل صحة البدن ودفع الامراض « فان سببها كثرة الاكل وحصول فضلة الاخلاط فى المعدة والعروق ، ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج الى الدواء والطبيب وكل ذلك يحتاج الى مؤن

و نفقات » ، وبالجوع وقلة الاكل تخف المؤنة « فان من تعو
قلة الاكل كفاه من المال قدر يسير ؛ والذى تعود الشب
صار بطنه غريما ملازما له وآخذا بخنقه فى كل يوم فيقو
ماذا تأكل اليوم فيحتاج الى أن يدخل المداخل فيكتسـ
من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل ، وربما يحتاج الى أ
يمد أعين الطمع الى الناس » ، وبقلة الاكل يتمكن مـن
الايثار والصدقة بما فضل من الاطعمة على اليتامى والمساكي
فيكون فى يوم القيامة فى ظل صدقته .

٧٣ — ويجعل الغزالى للاكل صفة اجتماعية منظمة فير
أن من آدابه أن يجتهد الانسان فى تكثير الايدى على الطعام و
من أهله وولده . ويدل على احترام الغزالى للاكل ورفعه عن خس
المادية ذكره أن من الآداب التى تتقدم على الاكل « غسل اليد لان الي
لا تخلو عن لوث فى تعاطى الأعمال فغسلها أقرب الى النظافة والنزاه
، ولان الاكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة » ومن ذكره أ
من آداب حالة الاكل أن يبدأ ببسم الله فى أوله ويحمد الله فى آخر
ويأكل باليمنى (احتراما له) ويبدأ بالملح ويختم به ويصغر اللقم

ويجود مضغها ومالم يبتلعها لم يمد اليد الى الاخرى فان ذلك عجلة في الاكل ، ولا ينفخ في الطعام الحار بل يصبر الى أن يسهل اكله ، وأن لايكثر الشرب في أثناء الطعام الا اذا غص بلقمة أو صدق عطشه (تنظيما له واتباعا للقواعد الصحية) وأن يأكل مما يليه الا الفاكهة فان له أن يجيل يده فيها ، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق ، ولا يجمع في كفه بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقيها وكل ماله عجم وثفل وما استرذله من الطعام ، وأن لا يأكل من وسط الطعام بل يأكل من استدارة الرغيف الا اذا قل الخبز فيكسر الخبز (احتراما له ولكيلا يتأذى من يأكل معه) وان لا يذم مأكولا فان أعجبه أكله والا تركه ، ولا يمسح يده بالخبز (احتراما للنعمة ، حتى انه يغالى فيقول لا يقطع بالسكين ولا يقطع اللحم أيضا ، ونرى أن هذا لا يقلل من احترام النعمة بل يمكن القول به وضمه لاحترام الاكل وتنظيمه) ، ويراعى الغزالى هذه المعانى في الشرب فيقول أن أدبه أن يأخذ الكوز (القدح) بيمينه ويقول بسم الله ويشربه مصا لاعبا ، ولا يشرب قائما ولا مضطجعا ، ويراعى أسفل (القدح) حتى لا يقطر عليه وينظر فيه قبل الشرب ولا يتجشأ ولا يتنفس فيه

بل ينحيه عن فمه بالحمد ويرده بالتسمية ، وكذلك يقول انه يستحب بعد الطعام أن يمسك قبل الشبع ، ويتخلل ولا يبتلع مايخرج من بين أسنانه بالخلال بل يرميه ، وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما اطعمه فيرى الطعام منة منه ، ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أولا .

٧٤ - مراقبة الله في النكاح : ويقول الغزالى أن للنكاح فوائد وآفات على العبد أن يوازن بينهما ويرجح الاصلح له منهما ، فآفاته ثلاث : العجز عن طلب الحلال (لان المتزوج في الاكثر يدخل مداخل السوء فيتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بدنياه) ، والقصور عن القيام بحق الزوجة ، وأن يكون الاهل والولد شاغلا له عن الله تعالى وجاذبا له الى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للاولاد بكثرة جمع المال وادخاره وطلب التفاخر والتكاثر بهم (وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشئوم على صاحبه) ، وأما فوائده فخمسة : (١) الولد : وهو الاصل وله وضع النكاح ، والمقصود بقاء النسل وأن لا يخلو العالم عن جنس الانس ، وانما الشهوة خلقت باعثة مستحثة

(كالتلطف بالطير فى بث الحب الذى يشتهيه ليساق الى الشبكة) . ويقول الغزالى فيما يتعلق بالولد وجوب أن تكون المرأة ولودا (فان لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فيراعى صحتها وشبابها فانها تكون ولودا فى الغالب مع هذين الوصفين) ، وأن تكون نسيبة (أعنى أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح فانها ستربى بناتها وبنيها فاذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية) ، وأن لا تكون من القرابة القريبة ، فان ذلك يقلل الشهوة (وفى الحديث الشريف « لا تنكحوا القرابة القريبة ، فان الولد يخلق ضاويا » أى نحيفا وذلك لتأثيره فى تضعيف الشهوة ، فان الشهوة إنما تنبعث بقوة الاحساس بالنظر واللمس ، وانما يقوى الاحساس بالأمر الغريب الجديد) . (٢) التحصن عن الشيطان وكسر التوقان وغض البصر وحفظ الفرج : ويقول الغزالى عند كلامه فيما على المريد فى ترك التزويج وفعله أن المريد فى ابتداء أمره ينبغى أن لا يشغل قلبه ونفسه بالتزويج فان ذلك يستجره الى الانس بالزوجة ، ومن أنس بغير الله

تعالى شغل عنه ؛ فشرط المريد العزوبة في الابتداء الى أن يقوى في المعرفة ؛ هذا اذا لم تغلبه الشهوة فان غلبته فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم ؛ فان لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لايقدر على حفظ العين مثلا وان قدر على حفظ الفرج فالنكاح أولى له لتسكن الشهوة وكذلك اذا لم يحفظ عينه اذ العين من كبار الصغائر وهو يؤدى على القرب الى الكبيرة الفاحشة وهى زنا الفرج ، وفى الحديث « لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشى ، والفم يزنى وزناه القبلة ، والقلب يهم أويتمني ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه » ، وان قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به ، فان الشر فى الصبيان أكثر فانه لو مال قلبه الى امرأة أمكنه الوصول الى استباحتها بالنكاح ، والنظر الى وجه الصبى بالشهوة حرام ، بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الامرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحى لم يحل له النظر اليه ،

ويعرف ذلك بميل النفس الى القرب والملامسة (ولو أن رجلا عبث بغلام بين أصبعيه من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لواطا كما قال سفيان ، اذ اللوطيون كما قال بعض السلف ثلاثة أصناف : صنف ينظرون وصنف يصافحون وصنف يعملون) .

ويقول الغزالى عند الكلام عن الخصال المطيبة للعيش التى لا بد من مراعاتها فى المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده : أن تكون خفيفة المهر (وكما تكره المغالاة فى المهر من جهة المرأة ، فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل ، ولا ينبغى أن ينكح طمعا فى المال ؛ واذا تزوج وقال أى شىء المرأة فاعلم انه لص كما قال الثورى) ؛ وان تكون حسنة الوجه اذ به يحصل التحصن والطبع لا يكتفى بالدميمة غالبا ، كيف والغالب ان حسن الخلق والخلق لا يفترقان ، ويدل على معنى الجمال ان الالف والمودة تحصل به غالبا ، وقد ندب الشرع الى مراعاة اسباب الالفة ولذلك استحب النظر ، ففى الحديث « اذا اوقع الله فى نفس احدكم من امرأة فلينظر اليها

فانه أحرى أن يؤدم بينهما » أى يؤلف بينهما من وقوع الادمة على الادمة وهى الجلدة الباطنة والبشرة الجلدة الظاهرة.

(٣) ترويح النفس وايناسها

بالمجالسة والنظر والملاعبة واراحة القلب وتقوية له على العبادة . ويقول الغزالى أنه يحسن أن تكون المرأة حسنة الخلق صالحة ذات دين ، فانها ان كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسها وفرجها أزرت بزوجها وسودت بين الناس وجهه وشوشت بالغيرة قلبه وتنغص بذلك عيشه (وفى الحديث « لا تنكح المرأة لجمالها ، فلعل جمالها يرديها ، ولا لمالها فلعل مالها يطغيها ، وانكح المرأة لدينها » وهذا ليس زجرا عن رعاية الجمال ، بل هو زجر عن النكاح لاجل الجمال المحض مع الفساد فى الدين ، فان الجمال وحده فى غالب الأمر يرغب فى النكاح ويهون أمر الدين) ، وأن تكون بكرا (وقد قال عليه السلام لجابر وقد نكح ثيبا ، هلاّ بكرا تلاعبها وتلاعبك) .

ويجب على الولى أيضا أن يراعى خصال الزوج ولينظر لكريمته فلا يزوجها

الا برضاها ولايزوجها ممن ساء خلقه أو خلقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها أو كان لايكافئها فى نسبها ، وينبغى أن يزوجها كما قال الحسن ممن يتق الله ، فان أحبها أكرمها وأن أبغضها لم يظلمها (٤) تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الاوانى وتهيئة أسباب المعيشة (٥) مجاهدة النفس ورياضتها بالرعية والولاية والقيام بحقوق الاهل والصبر على أخلاقهن واحتمال الاذى منهن والسعى فى اصلاحهن وارشادهن الى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لاجلهن والقيام بتربيته لأولاده .

٧٥ — مراقبة الله فى رياضة الصبيان : ويقول الغزالى « ان الصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل مانقش ومائل الى كل مايمال به اليه ، فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه . ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا ، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن

الاخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولايعوده التنعم ولا يحبب اليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها اذا كبر فيهلك هلاك الأبد ، بل ينبغى أن يراقبه من أول الأمر فلا يستعمل فى حضانته وارضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال ، ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغى أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، ثم يشغل فى المكتب (أو الروضة) ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فان خالف ذلك فى بعض الاحوال مرة واحدة فينبغى أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، فان عاد ثانيا فينبغى أن يعاقب سرا ويعظم الأمر فيه ، وينبغى أن يمنع عن كل مايعمله فى خفية فانه لايخفيه الا وهو يعتقد أنه قبيح فاذا ترك تعود فعل القبيح ، ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لايغلب عليه الكسل ، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والداه أو بشىء

من مطاعمه وملابسه بل يعود التواضع والاكرام لكل من عاشره والتلطف فى الكلام معهم ؛ ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بداله حشمة ان كان من أولاد المحتشمين بل يعلم أن الرفعة فى الاعطاء لافى الأخذ وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة ؛ وان كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الطمع والاخذ مهانة وذلة وان ذلك من دأب الكلب فانه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها ؛ وينبغى أن يعود أن لايبصق فى مجلسه ولايتمخط ولايتثاءب بحضرة غيره ولايستدبر غيره ولايضع رجلا على رجل » ؛ أى أن الغزالى يرى أن الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وانما أبواه يميلان به الى أحد الجانبين ، فمراقبة الله فيه الميل به للخير ، فلقد علم بن سوار بذلك ابن اخته سهل بن عبدالله التسترى كيف يذكر خالقه ، اذ قال له اذكره بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك « الله معى ، الله ناظر الى ، الله شاهدى » ثم زاد الى سبع مرات ثم الى احدى عشرة مرة ، فوقع فى قلبه حلاوته ؛ فانتهز خاله شعوره بهذه

اللذة وقال له « من كان الله معه وناظر اليه وشاهده أيعصيه؟!..
إياك والمعصية !!..

٧٦ - مراقبة الله فى المعاملات المادية مع الناس :

صلة المعاملات المادية هى صلة لايخرج انسان عنها إذ لابد له من نوع معاملة فى سعيه لكسب عيشه ، ولما كان الله تعالى قد قال فى كتابه العزيز « كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » احتجنا لمعرفة أصناف الحلال ومداخله ومراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام ، ويبين لنا ذلك الغزالى فى قوله ان المال انما يحرم لمعني فى عينه (كالخمر والخنزير ومايضر كالسم والقاذورات) أو لخلل فى جهة اكتسابه ، فما يؤخذ من غير مالك (كنيل المعادن والاصطياد) فحلال بشرط أن لايكون المأخوذ مختصا بذى حرمة من الآدميين ، وأما المأخوذ قهرا (كالغنيمة فى الحرب) فحلال اذا أخرج منها الخمس وقسم بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد ، وأما مايؤخذ قهرا باستحقاق عند امتناع من وجب عليه ، فحلال

اذا تم سبب الاستحقاق واقتصر على القدر المستحق واستوفاه ممن يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحق ؛ وأما مايؤخذ تراضيا بمعاوضة ، فحلال اذا روعى شرط العوضين وشرط العاقدين وشرط اللفظين (الايجاب والقبول مع ماتعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة) وأما مايؤخذ عن رضى من غير عوض : فحلال اذا روعى فيه شروط المعقود عليه وشرط العاقدين وشرط العقد ولم يؤد الى ضرر بوارث أو غيره ؛ وأما مايحصل بغير اختيار كالميراث فحلال اذا كان الموروث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال.

٧٧ — درجات الحلال والحرام : ويقول الغزالى ان الحرام كله خبيث لكن بعضه أخبث من بعض ؛ والحلال كله طيب ولكن بعضه أطيب وأصفى من بعض ، ولذلك قسم الورع عن الحرام على أربع درجات (١) ورع العدل وهو ورع عن كل ماتحرمه فتاوى الفقهاء وهو الذى يجب الفسق باقتحامه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض

للنار بسببه (٢) ورع الصالحين وهو الامتناع عمـا يتطرق اليـه احتمال التحريم ولـكن المفتى به يرخص فى التناول بناءعلى الظاهر (٣) ورع المتقين وهو ورع عما لاتحرمه الفتوى ولاشبهة فى حله ولـكن يخاف منه أداؤه الى محرم (وهو ترك مالابأس به مخافة مما به بأس لان أكثر المباحات داعية الى المحظورات حتى استكثار الاكل واستعمال الطيب للمتعزب فانه يحرك الشهوة) (٤)ورع الصديقين ، وهو الامتناع عمـا لابأس به أصلا ولايخاف منه أن يؤدى الى مابه بأس ، ولـكن يتناول لغير الله على غير نية التقوى به على عبادة الله أو تتطرق الى أسبابه المسهلة له كراهية أومعصية.

ويقول الغزالى ان الحديث الشريف « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لايعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات واقع الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » نص فى اثبات الاقسام الثلاثة : حلال مطلق (خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم فى عينه ، وانحل عن أسبابه ، ماتطرق اليه تحريم أو كراهية) وحرام محض (وهو

مافيه صفة محرمة لايشك فيها) وشبهة (وهو مااشتبه علينا أمره بان تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن سببين مقتضيين الاعتقادين).

٧٨ — مراتب الشبهات ومثاراتها : ويقول الغزالى ان مثارات الشبهة خمسة : (١) الشك فى السبب المحلل والمحرم : فان تعادل الاحتمالان ، كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك ، وان غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب ، وينقسم هذا الى أربعة أقسام : (ا) أن يكون التحريم معلوما من قبل ثم يقع الشك فى المحلل ، فهذه شبهة يجب اجتنابها ويحرم الاقدام عليه (كأن يرمى الى صيد فيجرحه ويقع فى الماء فيصادفه ميتا ولا يدرى أنه مات بالغرق أو بالجرح ، فهذا حرام لان الاصل التحريم الا اذا مات بطريق معين وقد وقع الشك فى الطريق فلا يترك اليقين بالشك .

(ب) أن يعرف الحل ويشك فى المحرم ، فالاصل الحل وله الحكم.

(حـ) أن يكون الأصل

التحريم ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب فهو مشكوك فيه والغالب حله ؛ فهذا ينظر فيه فان استند غلبة الظن الى سبب معتبر شرعا فالذى نختار فيه أنه يحل ــ اذ لا يدفع اليقين بالشك ــ واجتنابه من الورع (د) أن يكون الحل معلوما ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر فى غلبة الظن شرعا ، فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم اذ الاستصحاب ضعيف ولا يبقى له حكم مع غالب الظن .

(٢) المثار الثانى للشبهة :

شك منشؤه الاختلاط. وهذا ثلاثة أقسام (ا) أن تستبهم العين بعدد محصور (كما لو اختلطت الميتة بذكية) فهذه شبهة يجب اجتنابها بالاجماع لانه لا مجال للاجتهاد .

(ب) حرام محصور بحلال غير محصور (كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد بل له أن ينكح من شاء منهن) (حـ) أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر (كحكم الاموال فى زمننا

هذا) فلا يحرم بهـذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه أنه حرام وأنه حلال ، الا أن يقترن بتلك العين علامة على أنه من الحرام ، فان لم يكن في العين هذه العلامة فتركه ورع وأخذه حلال لا يفسق به آكله (فلو طبق الحرام الدنيا حتى علم يقينا أنه لم يبق في الدنيا حلال : فما جاوز حده انعكس الى ضده ومهما حرم الكل حل الكل) وبرهان الغزالى أنه اذا وقعت هذه الواقعة فباطل أن يقال يدع الناس الاكل حتى يموتوا عن آخرهم ، وباطل قطعا أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسد الرمق ، وفاسد أن يقال يتناولون قدر الحاجة كيف شاءوا سرقة وغصبا وتراضيا من غير تمييز بين مال ومال وجهة وجهة ، لانه رفع لسد الشرع بين المفسدين والفساد ، وتعطيل للتراضي أن يتبعوا شروط الشرع ويستأنفوا قواعده من غير اقتصار على قدر الحاجة ، وتكليف وشطط وضياع للاموال أن يقتصروا مع شروط الشرع على قدر الحاجة ، فلم يبق اذن الا الحل الذى رآه .

(٣) المثار الثالث للشبهة :

أن يتصل بالسبب المحلل معصية أما فى قرائنه وأما فى لواحقه وأما فى سوابقه أو فى عوضه ، وكانت من المعاصى التى لاتوجب فساد العقد وابطال السبب المحلل . ويضرب لنا الغزالى مثلا لكل فيقول ان مثال المعصية فى القرائن البيع فى وقت النداء يوم الجمعة والبيع على بيع الغير . ومثال اللواحق كل تصرف يفضى فى سياقه الى معصية كبيع العنب من الخمار والأقيس أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص بعقده عصيان الاعانة على المعصية . وأما المقدمات فلتطرق المعصية اليها ثلاث درجات (العليا تشتد الكراهة فيها مابقى أثره فى المتناول كالأكل من شاة علفت بعلف مغصوب ، والوسطى كالامتناع عن طعام واصل على يد سجان ، والثالثة وهى تنطع كالامتناع من حلال وصل على يد رجل عصى الله بالزنا أو القذف وليس هو كما لو عصى بأكل الحرام) . والمعصية فى العوض أيضا ثلاث درجات : العليا تشتد الكراهة فيها كأن يشترى شيئا فى الذمة ويقضى ثمنه من غصب أو مال حرام ، فينظر فان سلم اليه

البائع الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلبه فأكله قبل قضاء الثمن فهو حلال وتركه ليس بواجب ، فان قضى الثمن بعد الأكل من الحرام فكأنه لم يقض الثمن ، فان قضى الثمن من الحرام وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام فقد برئت ذمته ؛ وان أبرأه على ظن أن الثمن حلال فلا تحصل البراءة . والوسطى أن لا يكون العوض غصبا ولا حراما ولكن يتهيأ لمعصية كما لو سلم عوضا عن الثمن عنبا والآخذ شارب الخمر . والسفلى هي درجة الموسوسين وذلك أن يحلف انسان على أن لا يلبس من غزل أمه فباع غزلها واشترى به ثوبا فهذا لا كراهية فيه والورع عنه وسوسة . (٤)المثار الرابع الاختلاف في الادلة ، فان ذلك كالاختلاف في السبب ، لان السبب سبب لحكم الحل والحرمة ، والدليل سبب لمعرفة الحل والحرمة ، فهو سبب في حق المعرفة ، ومالم يثبت في معرفة الغير فلا فائدة لثبوته في نفسه وان جرى سببه في علم الله ، وهو اما أن يكون لتعارض أدلة الشرع (مثل تعارض عمومين في القرآن أو السنة أو تعارض قياسين وعموم ،

وكل ذلك يورث الشك ويرجع فيه الى الاستصحاب أو الاصل المعلوم قبله ان لم يكن ترجيح ، فان ظهر ترجيح فى جانب الحظر وجب الاخذ به ، وان ظهر فى جانب الحل جاز الاخذ به ولكن الورع تركه) أو لتعارض العلامات الدالة على الحل والحرمة (كتعارض شهادتى فاسقين أو قول صبي وبالغ ، فان ظهر ترجيح حكم به والورع الاجتناب ، وان لم يظهر ترجيح وجب التوقف) أو لتعارض الاشباه فى الصفات التى تناط بها الاحكام (كأن يوصى بمال للفقهاء فيعلم أن الفاضل فى الفقه داخل فيه ، وبينهما درجات لا تحصى يقع الشك فيها ، فالمفتى يفتى بحسب الظن والورع والاجتناب).

٧٩ – ويقول الغزالى أنه يجب استفتاء القلب تبعا للحديث الشريف « استفت قلبك ، وان افتوك وافتوك » ، ومن لم يثق بقلب نفسه فليلتمس النور بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الاحوال . فالغزالى يرى وجوب أن لا يقتصر الانسان على اجتناب الحرام بل يتقى مواقع الشبهات ومظان الريب ، ولا ينظر الى الفتاوى بل يستفتى

قلبه فاذا وجد فيه حزازة اجتنبه ، واذا حمل اليه سلعة رابه أمرها يسأل عنها حتى يعرف والا أكل الشبهة . فان كان المتعامل تاجرا وجب أن ينظر الى من يعامله : فكل منسوب الى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله وكذا الاجناد والظلمة لايعاملهم البتة ولايعامل أصحابهم وأعوانهم لانه معين بذلك على الظلم ، وفى الحديث ان الله ليغضب اذا مدح الفاسق .

٨٠ — العدل فى المعاملة : ويبين لنا الغزالى العدل واجتناب الظلم فى المعاملة فيقول (١) بوجوب ملاحظة مايعم ضرره : فالاحتكار ظلم عام وصاحبه مذموم فى الشرع اذا كان احتكارا للطعام (فى حالة ادخار الطعام انتظارا لغلاء الاسعار) ، وأما ماليس بقوت ولا هو معين على القوت كالادوية والعقاقير وأمثاله فلا يتعدى النهى اليه وان كان مطعوما ، وأما مايعين على القوت كاللحم والفواكه وما يسد مسدا يغني عن القوت فى بعض الأحوال وان كان لايمكن المداومة عليه فهذا فى محل نظر . وترويج الزيف

من الدراهم فى أثناء النقد ، فهو ظلم اذ يستضر به المعامل ان لم يعرف وان عرف سيروجه على غيره (٢) مايخص ضرره المعامل : فكل مايستضر به المعامل فهو ظلم وانما العدل أن لايضر بأخيه المسلم ، والضابط الكلى فيه أن لايحب لاخيه الا مايحب لنفسه ، فكل مالو عومل به شق عليه وثقل على قلبه ، فينبغى أن لايعامل غيره به بل ينبغي أن يستوى عنده درهمه ودرهم غيره ، أما تفصيله ففى أربعة أمور :

(ا) ترك الثناء : فان وصفه للسلعة كان بما ليس فيها فهو كذب ، فان قبل المشترى ذلك فهو تلبيس وظلم مع كونه كذبا وان لم يقبل فهو كذب واسقاط مروأة ، وان أثني على السلعة بما فيها فهو هذيان وتكلم بكلام لايعنيه ، الا ان يثني على السلعة بما فيها مما لايعرفه المشترى مالم يذكره ، ولاينبغى أن يحلف عليه البتة .

(ب) ان يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها ولا يكتم منها شيئا فذلك واجب ، فان أخفاه كان ظالما غاشا (والغش حرام) وكان تاركا للنصح

فى المعاملة . والغش حرام فى البيوع والصنائع جميعـا ، ولا ينبغى أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لو عامله به غيره لما ارتضاه لنفسه ، بل ينبغى أن يحسن الصنعة ويحكمها ثم يبين عيبها ان كان فيها عيب فبذلك يتخلص (حـ) أن لا يكتم فى المقدار شيئا وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفى الـكيل ، قال الله تعالى « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » ، ولا يخلص من هـذا الا بأن يرجح اذا أعطى وينقص اذا أخذ ، وبالجملة كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو فى كلمة ولا ينصف بمثل ما ينتصف فهو داخل تحت المطففين .

(د) أن يصدق فى سعر الوقت ولا يخفى منه شيئا .

(٣) الاحسـان فى المعاملة : ويقول الغزالى ان رتبة الاحسان تنال بواحد من ستة أمور :

(ا) أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به فى العادة .

(ب) والمشترى ان اشترى طعاما من ضعيف ، أو شيئا من فقير ، فلا بأس أن

يحتمل الغبن ويتساهل ويكون به محسنا ، والكمال فى أن لايغبن ولايغبن

(ح) فى استيفاء الثمن

وسائر الديون والاحسان فيه مرة بالمسامحة وحط البعض ومرة بالامهال والتأخير ومرة بالمساهلة فى طلب جودة النقد

(د) فى توفية الدين

ومن الاحسان فيه حسن القضاء ، وذلك بأن يمشى الى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشى اليه يتقاضاه ، ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر اليه ولو قبل وقته وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن ، وان عجز فلينو قضاءه مهما قدر ، ومهما كلمه صاحب الحق بكلام خشن فليحتمله وليقابله باللطف ، ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض فالاحسان أن يكون الميل الاكثر للمتوسطين الى من عليه الدين ، فان المقرض يقرض عن غني والمستقرض يستقرض عن حاجة ، وكذلك ينبغى أن تكون الاعانة للمشترى ، فان البائع راغب عن السلعة يبغى ترويجها والمشترى محتاج اليها ، هذا هو الاحسن الا أن يتعدى من عليه الدين حده ،

فعند ذلك نصرته فى منعه من تعديه (هـ) أن يقيل من يستقيله ، فانه لايستقيل الا متقـدم مستضر بالبيع : ولا ينبغى أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه

(و) أن يقصـد فى معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة وهو فى الحال عازم على أن لايطالبهم ان لم تظهر لهم ميسرة .

٨١ — ويقول الغزالى ان شفقة التاجر على دينه تتم بمراعاة أمور أهمها : حسن النية والعقيدة فى ابتداء التجارة : فلينو بها الاستغناء بالحـلال عن الناس ، واستعانة بما يكسبه على الدين وقياما بكفاية العيال ، وأن يقصد القيام فى صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات ، وأن لايمنعه سوق الدنيا عن سوق الاخرة (المساجد) قال تعالى « رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة » ، ثم مهما سمع الاذان فينبغى أن لايعرج على شغل وينزعج عن مكانه ويدع كل ما كان فيه (والافضل اتخاذ يوم الجمعة يوم راحة) وأن لايقتصر على هذا بل يلازم ذكر الله سبحانه فى السوق ويشتغل بالتهليل والتسبيح : وينبغى أن يراقب

جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه ، فانه مراقب
ومحاسب فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب فى كل فعلة وقولة
أنه لم أقدم عليها ولاجل ماذا .

٨٢ — ويرى الغزالى وجوب ان لا يكون التاجر (الشفيق
على دينه) شديد الحرص على السوق والتجارة ، وذلك بان يكون
أول داخل وآخر خارج وبان يركب البحر فى التجارة فهما مكروهان ،
لكنا نرى ان قوله تعالى « فانتشروا فى الارض ، وابتغوا من فضل
الله » لا يتنافى مع الجد فى الترويج لسلعته والمنافسة المشروعة
والسعى لان يكون اول داخل وآخر خارج وان يركب البحر او
غيره سعيا وراء الرزق وابتغاء من فضل الله .

٨٣ — مراقبة الله فى العجب : ويقول الغزالى ان
العجب مذموم وآفاته كثيرة ، فانه يدعو الى الكبر لانه
أحد أسبابه فيتولد منه (مع العباد) ومن الكبر الآفات
الكثيرة ، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو الى نسيان
الذنوب واهمالها ، ومايتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه
فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له ، وأما

العبادات والاعمال فانه يستعظمها ويتبجح بها ، ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكن منها ، ثم اذا أعجب بها عمى عن آفاتها ، ومن لم يتفقد آفات الاعمال كان أكثر سعيه ضائعا ، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان ويخرجه العجب الى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها ، ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ .

٨٤ ـ ويقول الغزالى ان العجب أنما يكون بوصف هو كمال لا محالة ، والعجب أن يكون العالم بكمال نفسه فى علم وعمل ورأى وعقل وجمال وقوة ونسب (وكثرة أنصار واتباع وولاية وغيره) ، غير خائف عليه بل يكون فرحا به مطمئنا اليه ويكون فرحه به من حيث أنه كمال ونعمة وخير ورفعة (ومن حيث أنه صفته ومنسوب اليه بانه له) لا من حيث أنه عطية من الله تعالى ونعمة منه

فاذا العجب هو استعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم ، فان انضاف الى ذلك أن غلب

على نفسه أن له عند الله حتما وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا (كأن يتوقع اجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه واستبعد أنه يجرى عليه مكروه سمى هذا دلالا بالعمل فكأنه يرى لنفسه على الله دالة (ويكون مدلا عليه والادلال وراء العجب — إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه ، والادلال لا يتم الامع توقع جزاء).

٨٥ — مراقبة الله فى الحسد : ويقول الغزالى ان الحسد من الامراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب الا بالعلم والعمل ، فالادوية العلمية أن يتفكر الانسان أنه بالحسد مهلك نفسه ومنغص عيشه (اذ يتعذب بكل نعمة يراها على أعدائه ويتألم بكل بلية تنصرف عنهم)، ومسخط ربه (اذ سخط قضاءه وغش رجلا من المؤمنين وترك نصيحته ولم يحب الخير له ، بل أحب له البلايا ، وزوال النعم) ، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسده ، بل يتعرض لسخط الله تعالى وشديد عذابه فى الآخرة ونقل

حسناته اليه ، وعساه يحاسد رجلا من أهل العلم ويحب أن يخطىء فى دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح ويحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم وأى اثم يزيد على ذلك .

واما العمل النافع فى الحسد فهو ان يحكمه ، فكل مايتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغى ان يكلف نفسه نقيضه فان بعثه الحسد على القدح فى المحسود كلف لسانه المدح له والثناء عليه ، وان حمله على التكبر عليه الزم نفسه التواضع له والاعتذار اليه ، وان بعثه على كف الانعام عليه الزم نفسه الزيادة فى الانعام عليه ، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه واحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه وتولد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد ، ثم ذلك الأحسان يعود الى الاول فيطيب قلبه ويصير ماتكلفه اولا طبعا آخرا ، وتهون مرارة هذا الدواء بقوة الرغبة فى ثواب الرضى بقضاء الله تعالى .

٨٦ - ويقول الغزالى ان الحسد صفة القلب لا صفة الفعل

: قال تعالى « ان تمسسكم حسنة تسؤهم » ، اما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد ، وهذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى وانما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح (بقول أو فعل) ، فاما اذا كففت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة مايترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما فى طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل فى مقابلة الميل من جهة الطبع فقد أديت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارك فى أغلب الاحوال أكثر من هذا (والمستغرق بحب الله تعالى لايلتفت قلبه الى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر الى الكل بعين واحدة وهى عين الرحمة ويرى الكل عباد الله وأفعالهم أفعالا لله ويراهم مسخرين) ، وقد ذهب ذاهبون الى انه لايأثم اذا لم يظهر الحسد على جوارحه والظاهر أنه لايخلو عن اثم بقدر قوة حب زوال النعمة وضعفه .

١٧ ـ مراقبة الله فى الكبرياء : وقال تعالى « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق » ، ويقول الغزالى ان الكبر ينقسم الى خلق باطن فى النفس (يسمى

كبرا) والى أعمال ظاهرة تصدر عن الجوارح (تسمى تكبرا) ؛ فالاصل هو الخلق الذى فى النفس وهو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه (فيستعظم نفسه وينبغى أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ؛ فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر ؛ ولذا هو لا يتكبر على من هو أعظم من نفسه أو مثل نفسه أو على حقير هو أحقر منه) فهذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل فى قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون الى ما اعتقده وعز فى نفسه بسبب ذلك . ثم هذه العزة (الكبر) تقتضى أعمالا فى الظاهر والباطن وهى ثمرات ويسمى ذلك تكبرا فانه مهما عظم عنده قدره بالاضافة الى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ورأى ان حقه ان يقوم ماثلا بين يديه ان اشتد كبره ، فان كان اشد من ذلك استنكف عن استخدامه ، فان كان دون ذلك فيأنف من مساواته وتقدم عليه فى مضايق الطرق وارتفع

عليه فى المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره فى قضاء حوائجه وتعجب منه ، وان حاج وناظر أنف أن يرد عليه ، وان وعظ استنكف من القبول ، وان وعظ عنف فى النصح ، وان رد عليه شىء من قوله غضب ، وان علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم وينظر الى العامة كأنه ينظر الى الحمير استجهالا لهم واستحقارا ، والكبر صار حجابا دون الجنة لانه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها فيدعوه الى كل الاخلاق الذميمة اذ هى متلازمة والبعض منها داع الى البعض لامحالة (فلا يحب للمؤمنين مايحب لنفسه ولا يقبل الحق وينقاد له ويزدرى بالناس « واذا قيل له اتق الله ، أخذته العزة بالاثم » .

٨٨ — ويقول الغزالى ان التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة اقسام افحشها التكبر على الله (كفرعون اذ قال لتكبره أنا ربكم الاعلى اذ استنكف ان يكون عبد الله ، ولا مثار الا الجهل المحض) ، ثانيها التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس

وتر فعها عن الانقياد للبشر ؛ وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى فى ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لاتطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل « وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيرا » ، وثالثها التكبر على العباد (وهذه رذيلة عظيمة لان الكبر والعز والعظمة لايليق الا بالله الملك القادر) .

٨٩ ـ مراقبة الله فى الالفة والصحبة : والصحبة تنقسم الى مايقع بالاتفاق (كالصحبة بسبب الجوار أو الاجتماع فى المدرسة أو فى السوق أو فى الاسفار) والى ماينشأ اختيارا أو يقصد ، ويقول الغزالى ان الصحبة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمجاورة ؛ وهذه الأمور لايقصد الانسان بها غيره الا اذا أحبه ، فان غير المحبوب يجتنب ويباعد ؛ والذى يحب فاما أن يحب لذاته واما أن يحب للتوصل الى مقصود مقصور على الدنيا وحظوظها (وهو مذموم ان كان القصد مذموما كقهر الاقران وحيازة أموال اليتامى ، ومباح

ان كان القصد التوصل الى مباح كنيل جاه أو مال أو علم) ، واما أن يكون متعلقا بالآخرة (كمن يحب أستاذه لأنه يتوصل به الى تحسين العلم وتحسين العمل للفوز فى الاخرة ، وكذلك من يحب تلميذه لانه يتلقف منه العلم) ، واما أن يكون متعلقا بالله تعالى بأن يحب لله وفى الله ، وهذا أعلى الدرجات وأدقها وأغمضها (وهو ممكن لان من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب الى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد. فمن أحب انسانا حبا شديدا أحب محبه وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثنى عليه محبوبه ، وأحب من يتسارع الى رضى محبوبه ، وكذلك حب الله سبحانه وتعالى اذا قوى وغلب على القلب استولى عليه فيتعدى الى كل موجود سواه ، فان كل موجود سواه أثر من آثار قدرته) .

ويقول الغزالى ان « كل من يحب فى الله ، لابد أن يبغض فى الله ، فانك ان أحببت انسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله ، فان عصاه فلابد أن تبغضه ، فاذا اجتمع فى شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فانك تحبه من وجه وتبغضه من وجه ، واظهار البغض اما بالقول

فبكف اللسان عن مكالمتـه ومحادثته مرة وبالاستخفاف والتغليظ فى القول أخرى ، وأما فى الفعل فبقطع السعى فى اعانته مرة وبالسعى فى اساءته وافساد مآربه أخرى ، وبعض هذا أشد من بعض وهو بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه . أما ما يجرى مجرى الهفوة التى يعلم أنه متندم عليها ولا يصر عليها : فالاولى فيـه الستر والاغماض » .

وتطبيقا على هذا المبدأ نرى الغزالى يقول ان الاولى الاعراض عمن يعصى بفعل يتأذى به غيره بل الاستحباب فى اهانتهم (وذلك كالظـلم فى الدماء والاموال والاعراض ـ وبعضها أشد من بعض ـ ، وكمن يدعو غيره للفساد كصاحب الماخور الذى يجمع بين النساء والرجال ويهيىء أسباب الشرب والفساد) ، وكذلك يرى الاستحباب فى اظهار بغض المبتدع الذى يدعو الى بدعته ، ومعاداته والانقطاع عنـه وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنـــه أشد (كترك الجواب عن سلامه فى ملأ ، أما ان سلم فى خـلوة فلا بأس برد جوابه) ، ويرى استحباب الاعراض عن العامى المبتدع

الذى لايقدر على الدعوة ولايخاف الاقتداء به و نصح ولم ينتصح (ان كان فى الاعراض عنه تقبيح لبدعته فى عينه) وأما الكافر فيقتل ويرق ان كان محاربا ، وأما الذمى فيرى أنه لايجوز ايذاؤه الا بالاعراض عنه والتحقير له بالاضطرار الى أضيق الطرق وبترك المفاتحة بالسلام ؛ فاذا قال السلام عليك قلت وعليك ، ويرى أن الاولى الكف عن مخالطته ومعاملته وموا كلته ، وأن الانبساط معه والاسترسال اليه كما يسترسل الى الاصدقاء مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهى الى حد التحريم . وأما الذى يفسق فى نفسه بمقارفة محظور يخصه كالذى يشرب ويزنى ، فيرى أنه فى وقت مباشرته ان صودف يجب منعه بما يمتنع به ولو بالضرب والاستخفاف (ونرى وجوب ترك عقوبة الفعل لاولياء الامور منعا من الفوضى واساءة استعمال هذا الحق فيودى الى الجرائم) ، واذا فرغ منه وعلم ان ذلك من عادته وهو مصر عليه فيجب نصحه ان تحقق ان نصحه يمنعه عن العود اليه ، وان لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح

والزجر باللطف أو بالتغليظ ان كان هو الانفع (والمستفتي هو القلب في الاعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصر وأن النصح ليس ينفعه).

٩٠ – وغير المسلمين ينقسمون الى مشرك نجس (ويدخل فيهم الوثنيون والمجوس والطبيعيون) والى كتابيين وأظهرهم الان المسيحيون واليهود) : والفريق الاول لكثرة عدده في العالم أرى أن نخوتنا الدينية توجب على خاصتنا الاتصال به لكى ننشر الدعوة الاسلامية بين ظهرانيهم ، وهذا لا يكون بالابتعاد والعنف بل يكون بالتودد واللطف ، وأما الفريق الثانى فأرى أنه مادامت المعاملات المادية تقتضي الاتصال ، ويدعو هذا الاتصال الى الحسنى في المعاملة والاخلاص فيها ، ومادامت الانسانية تقرر اجتماعنا جميعا في الشعور باللذة والالم ، وان اختلف هذا الشعور واختلف مداه واختلفت درجته من حيث السمو الروحي ، ومادام الناس جميعا عباد الله فيجب أن نحب فيهم محاسنهم الخلقية والمعنوية لهذا المعنى ، ومادام القلب لا يمكن قراءته والخاتمة

لا يستطاع معرفتها فقد يكون مؤمنا سرا بقلبه وقد يموت مسلما ، مادام هذا كذلك فالرأى وجوب أن نفهم أن اختلاف الاديان أمر أراده الله إذ قال فى كتابه الكريم « وانك لاتهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء » وقال قل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » وقال « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، فيجب أن نعامل غير المسلمين نفس المعاملة الامينة التى نعامل بها المسلم ، وقد وضع لنا النبى الكريم وأصحابه أسوة حسنة إذ كانوا يحضرون ولائم غير المسلمين ويغشون مجالسهم ويشيعون جنائزهم ويعزونهم فى مصائبهم ، وأمرنا الاسلام بمساواتهم أمام القانون وأن نوفيهم حقوقهم كاملة ولا نبخسهم منها شيئا ، بل لقد أمرنا الله فى كتابه العزيز أن نعامل غير المسلمين كما نعامل المسلمين بالرفق ومكارم الاخلاق فقال « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين » ، فاذا كان الاسلام يأمرنا بمجاملة الاجانب عن

ديننا ومحاسنتهم لامواربة ومداهنة خوفا منهم أوطمعا فيهم بل عن صفاء نية واخلاص طوية حتى انه ينهانا عن اغتياب أحد منهم وذكره بما يكره ، بل شدد النبي الكريم النكران على من يؤذيهم فقال « من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه فقد خصمته يوم القيامة » وقال « من قذف ذميا حدّ له يوم القيامة بسياط من نار » وقال « خاب عبد خسر ، لم يجعل الله فى قلبه رحمة للبشر » ، فيجب ان نعامل مجموعهم معاملة صافية وصديقهم معاملة مخلصة امينة ، وان نحب فيهم مايحب من جمال حسى وخلق ومعنوى ، وان نكره فيهم مايكره من قبيح واقبح القبيح سوء العقيدة وفسادها ، ولكننا اذا كرهنا سوء العقيدة فليس معنى هذا كراهية أصحابها ، واذا كنا نبغض فساد العقيدة فليس معنى هذا البغض لمعتنقيها ، لانه يجب ان نحب لعباد الله جميعا مانحب لانفسنا فيجب ان نحب لفاسد العقيدة ان يقلع عنها ويرجع لربه ، فاذا رجع فرحنا برجوعه ، واذا لم يرجع فقد يرجع يوما ما وقد يكون راجعا بالفعل ولكنه لاعتبارات

كثيرة يراها قد رجع سرا ، واذا لم يرجع فأمره لله ، ويجب أن نحزن على عدم رجوعه لا أن نبغضه عليه لانا لا ندرى بماذا ختم له ، فقد يكون فى ظاهره غير راجع وفى الحقيقة قد رجع ، والمعاملة الامينة المخلصة على هذا الاعتبار حب فى الله لانك قد راقبت الله فى معاملة عبد من عباده ، ولكن اذا ظهر من هذا الغير مسلم مايدل على الاصرار على عقيدته بمحاربة الاسلام أو الطعن فيه أو ايذاء المسلمين لانهم مسلمون أو العمل على اخراج مسلم عن دينه بالاغراء أو التغرير ، فهنا يجب بغضه (لعمله ولذاته) ويجب تحقيره والازدراء به وقطع كل معاملة معه بل معاداته ، وهنا فقط يكون بغضه بغض فى الله .

هذه هى وجهة نظرنا ، وليس معنى ذلك أن الغزالى مخطىء فى وجهة نظره لانها فى زمانه كانت أحسن وجهة لذهاب كل الملل والنحل فى التعصب الى أبعد مدى ، وحتى اذا قلنا بأن وجهة نظره فى بغض غير المسلمين وفى نوع معاملتهم خاطئة ، فانه لا يقلل من مكانة نبل آرائه اذ العصمة

والكمال لله وحده . وآراء الغزالى التى يمكن أن تكون موضع خلاف قليلة ولا يمكن أن يقال أنه خاطىء فيها بل كل ما يمكن قوله أنه قد توجد وجهات نظر أخرى تكون موضعا للتساؤل هل الأحسن الأخذ بها أم لا ؛ فمثلا ذكر الغزالى عند كلامه عن النكاح وجوب أن يذكر الرجل اسم الله ويكبر اذا أراد الاتصال البهيمى بزوجته ؛ وقد يكون هذا موضع تساؤل هل هذا أحسن أم جعل التكبير سابقا على الفعل لان الانسان فى هذه الحالة يكون فى حالة يحسن أن يحترم الذكر ابانها ؛ وأورد الغزالى نفسه فى كتابه عند كلامه عن الصلاة النهى عن أن يقرب (المحصور) فى بول أو غائط (المجاهد لهما أى الواجد رغبة قوية فيهما) الصلاة لكى يتفرغ المصلى لصلاته ولكيلا يعرض له فى الصلاة ما يضطره الى الضغط على أعضائه أو التفكير فيهما ، فيمكن قياس هذه بتلك ؛ كما يمكن أن يقال بوجوب ذكر الله فى أى حال حتى ولو كان الشخص نجسا (لخروج المنى منه لاتصاله بزوجته أو لاحتلامه فى منامه) ؛ كما يمكن أن

يقال بوجوب ذكر الله ولكن يجب اجلال ذكره فى حالة المباشرة للنكاح أو البول أو الغائط ، والمستفتى فيه هو القلب .

٩١ ـ مراقبة الله فى السماع والوجد : ويقول الغزالى أنه لايدل على تحريم السماع نص ولاقياس ، بل قد دل النص والقياس جميعا على اباحته ، أما القياس فهو أن الغناء سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب ، أما سماع الصوت الطيب من حيث أنه طيب فلا ينبغى أن يحرم بل هو حلال بالقياس (إذ يرجع الى تلذذ حاسة السمع بادراك ماهو مخصوص به) وبالنص (اذ امتن الله تعالى على عباده به بقوله « يزيد فى الخلق مايشاء » ـ ومنه الصوت الحسن ـ ويدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن قوله «إن انكر الاصوات لصوت الحمير» . والوزن وراء الحسن) . ويقول الغزالى ان لله تعالى سرا فى مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى أنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا ، فمن الاصوات مايفرح ومنها مايحزن ومنها ماينوم ومنها مايضحك ويطرب ومنها مايستخرج من الاعضاء

الرقص بحركات على وزنها باليد والرجل والرأس (وهذا جار فى الاوتار بالتأثير بالنغمات الموزونة لا بفهم معانى الشعر ، وتأثيره مشاهد فى الصبي فى مهده فانه يسكته الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عما يبكيه الى الاصغاء اليه ، وفى الجمل مع بلادة طبعه اذ يتأثر بالحداء تأثرا يستخف معه الاحمال الثقيلة ويستقصر لقوة نشاطه فى سماعه المسافات الطويلة) .

٩٢ — فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد فى مواضع لاغراض مخصوصة ترتبط بها آثار فى القلب ؛ ويقول الغزالى أنها سبعة مواضع : (١) سماع هو من جملة القربات: وهو سماع من أحب الله واشتاق الى لقائه ؛ فالسماع فى حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه ومستخرج منه أحوالا (تسمى بلسان الصوفية وجدا مأخوذ من الوجود والمصادفة أى صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع) تكون أسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات ، ثم يتبع

الصفاء الحاصل به المشاهدات والمكاشفات (٢) غناء الحجيج : وهو مباح لاهاجته الشوق الى بيت الله تعالى بالغناء على الطبل والشاهين بأشعار نظمت فى وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر (٣) مايعتاده الغزاة من الاشعار وطرق الالحان وطرق الوزن المشجعة لتحريض الناس على الغزو واستثارة داعيته بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال ، وذلك أيضا مباح فى وقت يباح فيه الغزو .

(٤) الرجزيات التى يستعملها الشجعان فى وقت اللقاء والغرض منها التشجيع للنفس والانصار وتحريك النشاط فيهم للقتال ، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة ، وذلك اذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع فى النفس : وذلك مباح فى قتال مباح ولذلك ينبغى أن يمنع من سائر الاصوات والالحان المرققة التى تحلل عقدة الشجاعة وتضعف صرامة النفس وتشوق الى الاهل والوطن وتورث الفتور فى القتال (كالضرب بالشاهين

لان صوته محزن مرقق) (٥) أصوات النياحة ونغمتها وتأثيرها فى تهييج الحزن والبكاء وملازمة الكآبة والحزن : ويذم فيها ما كان حزنا على مافات (كالحزن على الاموات) ؛ ويحمد حزن الانسان وتحازنه على تقصيره فى أمر دينه وبكاؤه وتباكيه على خطاياه (فيحمد تحريكه وتقويته لانه يبعث على التشمير للتدارك) . وعلى هذا لايحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بألحانه الاشعار المحزنة المرققة للقلب ولا أن يبكى ويتباكى ليتوصل به الى تبكية غيره واثارة حزنه (٦) السماع فى أوقات السرور تأكيدا للسرور وتهييجا له : وهو مباح ان كان ذلك السرور مباحا ؛ وقد أنشد النساء على السطوح بالدف والالحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعى لله داعى

(٧) سماع العشاق

تأكيدا للذة (فى مشاهدة المعشوق) وتحريكا للشوق

وتهييجا للعشق وتسلية للنفس وتحصيل لذة الرجاء المقدر في الوصال مع الاطناب في وصف حسن المحبوب (ان كان مع المفارقة) : وهذا حلال ان كان المشتاق اليه ممن يباح وصاله كمن يعشق زوجته فيصغى الى غنائها ، وكذلك ان غضبت منه أو حيل بينه وبينها بسبب من الاسباب فله أن يحرك بالسماع شوقه وأن يستثير به لذة رجاء الوصال ، فان طلقها حرم عليه ذلك بعده . وأما من يتمثل فى نفسه صورة صبي أو امرأة لايحل له النظر اليها وكان ينزل مايسمع على ماتمثل فى نفسه فهذا حرام لانه محرك للفكر فى الافعال المحظورة ومهيج للداعية الى مالايباح الوصول اليه .

٩٣ ـ عوارض السماع : ويقول الغزالى أنه يحرم السماع بخمسة عوارض : أن يكون المسمع امرأة لايحل النظر اليها وتخشى الفتنة من سماعها (وفى معناها الصبي الامرد الذى تخشى فتنته) ، وأن تكون الآلة من شعار أهل الشرب أو المخنثين (وهى المزامير والاوتار وطبل الكوبة) ، وأن يكون فى نظم الصوت وهو الشعر شيء من الخنا والفحش وهجو غير الكفار وأهل البدع أو الكذب

على الله ورسوله ؛ وكذلك مافيه وصف امرأة بعينها (وأما النسيب وهو التشبيب بوصف الخدود والاصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء فلا يحرم نظمه وانشاده بلحن وغير لحن ؛ وعلى المستمع أن لاينزله على امرأة معينة ؛ فان أنزله فلينزله على من يحل له من زوجته ؛ فان أنزله على أجنبية فهو العاصي باجالة الفكر فيه) ، وأن تكون الشهوة غالبة على المستمع وكان فى غرة الشباب ، وأن يتخذه ديدنه وهجيراه ويقصر عليه أكثر أوقاته (اذ ترد شهادته لسفاهته لان السماع ولو أنه لذة مباحة الا أنه لهو والمواظبة على اللهو جناية).

٩٠ — مراقبة الله فى الجاه : ويقول الغزالى ان الجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الاعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها والتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها فى اغراضه ومآربه (كالمدح والاطراء اذ المعتقد للكمال لايسكت عن ذكر مايعتقده فيثني عليه ، وكالخدمة والاعانة فانه لايبخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد فى اغراضه ،

وكالتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر فى المحافل والتقديم فى جميع المقاصد والايثار وترك المنازعة) .

فاذا معنى الجاه قيام المنزلة فى قلوب الناس أى اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه (ولو لم يكن كمالا فى نفسه) ، فبقدر مايعتقدون من كمال تذعن له قلوبهم ، وبقدر اذعان القلوب تكون قدرته على القلوب، وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه .

ويقول الغزالى ان الجاه أحب من المال ، ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه : (١) ان التوصل بالجاه الى المال أيسر من التوصل بالمال الى الجاه، و(٢) ان المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويحتاج فيه الى الحفظة والحراس والخزائن ويتطرق اليه أخطار كثيرة ، وأما القلوب اذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات (وانما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاوله فعله) و (٣) ان ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد من غير حاجة الى تعب ومقاساة ،

فان القلوب اذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله أفسحت
الألسنة لامحالة بما فيها فيصف مايعتقده لغيره ويقتنص
ذلك القلب أيضا . ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار
الذكر لأن ذلك اذا استطار فى الاقطار اقتنص القلوب
ودعاها الى الاذعان والتعظيم . والغزالى لايرى الكمال الحقيقى
إلا العلم (بمعرفة الله) والحرية (بالاخلاص من أسر الشهوات
وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر) والبعد عن التغير
والتأثر بالعوارض ، ليقرب الى الله تعالى وتعظم منزلته
عنده ويتشبه بالملائكة . ولذا نراه يذم الجاه بمعناه المفهوم ؛
ويقول ان حكم الجاه حكم الاموال عرض من أعراض الحياة
الدنيا وينقطع بالموت كالمال ، وحبهما لأجل التوصل بهما
الى مهمات البدن غير مذموم ، ولكن يذم حبهما لاعيانهما
فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته (ولا يوصف صاحبه بالفسق
مالم يتوصل اليه بعباده ومالم يحمله الحب على مباشرة معصية
ومالم يتوصل الى اكتسابه بكذب وخداع وتلبيس إما
بالقول أو بالمعاملة وارتكاب محظور بطلب قيام المنزلة فى

قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها مثل العلم والورع والنسب . ويباح طلب المنزلة بصفة هو متصف بها أو باخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم، لانه صادق فى الاول ساتر للقبيح فى الثانى) .

٩٥ ـ ويرى الغزالى أن لحب المدح والتذاذ القلب به ثلاثة أسباب قد تجمع فى مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ ، وقد تفترق فتنقص اللذة بها ، نرى ذكر علاجها الذى رآه معها : (١) شعور النفس بالكمال (وهو أقوى الاسباب) ، فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها ، فان كان الوصف الذى به مدح جليا محسوسا كانت اللذة به أقل ولكنه لا يخلو عن لذة (كثنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون) ، وان كان ذلك الوصف مما يتطرق اليه الشك فاللذة فيه أعظم (كالثناء عليه بكمال العلم وبكمال الورع أو بالحسن المطلق) ، وانما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف فى القول

إلا عن تحقيق (وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالذكاء) . ويقول الغزالى ان طريق العلاج ملاحظة هـذا السبب الذى لاجله يحب المدح ويكره الذم ، وطريقك فيه أن ترجع الى الصفة التى يمدحك بها : فان كانت من الاعراض الدنيوية (كالثروة والجاه) فمن قلة العقل الفرح بها لانها عروض زائلة ، وان فرح فلا ينبغى أن يفرح بمدح المادح بل بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها ؛ وان كانت الصفة مما يستحق الفرح بها (كالورع والعلم) فينبغى أن لايفرح بها لان الخاتمة غير معلومة ، ثم ان كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك لابمدح المادح لانه لايزيدك فضلا ، وان كانت الصفة التى مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون إذ هو اما استهزاء بك أو غاية الجهل (٢) أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته ، وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ ؛ وان ثناءه سبب لاصطياد قلب

كل من يسمعه (لاسيما مهما كان الجمع أكثر، وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه (كالملوك والاكابر) ويضعف مهما كان المادح لايؤبه له ولايقدر على شيء فان القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح الا على قدرة قاصر. ويقول الغزالى ان معالجة هذا السبب بقطع الطمع عن الناس وبطلب المنزلة عند الله وبأن تعلم أن طلبك المنزلة فى قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله فكيف تفرح به (٣) أن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح الى اطلاق اللسان بالثناء على الممدوح اما عن طوع وأما عن قهر، فان الحشمة أيضا لذيذة لما فيها من القهر والقدرة، وهذه اللذة تحصل وان كان المادح لايعتقد فى الباطن مامدح به ويكن كونه مضطرا الى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه، فلاجرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد. ويقول الغزالى أن هذه الحشمة التى اضطرت المادح الى المدح ترجع ايضا الى قدرة عارضة

لاثبات لها ولاتستحق الفرح بل ينبغي ان يغمه مدح المادح ويكرهه ويغضب به ، ومهما علم ان أمره بيد الخالق وان الارزاق والآجال بيد الله تعالى ، قل التفاته الى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من امر دينه .

٩٦ ـ ويقول الغزالي ان العلة في كراهة الذم هو ضد العلة في حب المدح فعلاجه أيضا يفهم منه ، فان كان من ذمك صادقا وقصده النصح والشفقة فلا ينبغي أن تذمه بل ينبغي أن تفرح به وتشتغل بازالة الصفة المذمومة عن نفسك ان قدرت عليها ، وان كان قصده الايذاء والتعنت فهو قد تضر ربه في دينه وأنت قد انتفعت بقوله (اذ ذكرك عيبك أو أرشدك اليه أو قبحه في عينك) ، وان افترى عليك بما أنت برىء منه عند الله تعالى فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر في أنك في غنى عنه وأنك ان خلوت من ذلك العيب فلا تخلو من أمثاله وأشباهه وماستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى اذلم يطلعه

على عيوبك ، وأن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك إذ أهدى اليك حسناته بغيبته) ، وأن المسكين قد أهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقاب الله الاليم، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله فتشمت به الشيطان بل ينبغي أن تقول اللهم أصلحه وتب عليه وارحمه .

٩٧ ــ ويقول الغزالى ان للناس أربعة أحوال بالاضافة الى الذام والمادح (١) أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية فى هذا الباب (٢) أن يتمعض فى الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ويرتاح المادح، ولكن يحفظ ظاهره عن اظهار السرور ، وهذا من النقصان إلا أنه بالاضافة الى ماقبله كمال (٣) أن يستوى عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة وهذا أول درجات الكمال ، وعلاماته أن لا يجد فى نفسه استثقالا

للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده فى المادح وأن لايجد فى نفسه زيادة هزة ونشاط فى قضاء حوائج المادح فوق مايجده فى قضاء حاجة الذام؛ وأن لايكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح؛ وأن لايكون موت المادح المطرى أشد نكاية فى قلبه من موت الذام وأن لايكون غمه بمصيبة المادح ومايناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام؛ وأن لاتكون زلة المادح أخف على قلبه وفى عينه من زلة الذام (٤) الصدق فى العبادة وهي أن يكره المدح اذ يعلم انه فتنة عليه ويحب الذام اذ يعلم انه مهد اليه عيبه ومرشد له الى مهمه ومهد اليه حسناته

٩٨ - مراقبة الله فى الاخلاص وعدم الرياء : -

ويقول الغزالى ان الرياء حرام والمرائى عند الله ممقوت ، والرياء مشتق من الرؤية والسمعة مشتقة من السماع ، واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات واظهارها ، فحد الرياء هو ارادة العباد بطاعة الله ، والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهى مجامع مايتزين به العبد

للناس وهو البـدن والزى وبالقول وبالعمل وبالأصحاب والزائرين والمخالطين . فالرياء هو طلب الجاه وهو يكون بالعبادات أو بغير العبادات (كالرياء باظهار الجمال وأنواع التوسع والتفاصح واظهار التودد الى الناس والتبختر) ، إلا أن طلب الجاه بأعمال ليست من الطاعات أهون من الرياء بالطاعات ، وطلب الجاه كطلب المال يحرم كسبه بتلبيسات وأسباب محظورات ، وأما سعته من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله ان زال فلاضرر فيه ، ولـكن انصراف الهم الى طلب الجـاه (أو المال) نقصان فى الدين ولا يوصف بالتحريم (وهى رغبة تذم أو تمدح بحسب الغرض المطلوب بها) . واذا لم يكن للمرائى بالعبادات إلا قصد الرياء المحض دون الأجر ، فتبطـل عبادته بل يعصى بذلك ويأثم لان فيـه تلبيسا ومكرا على الناس لانه خيل اليهم أنه مخلص مطيع لله وليس كذلك (والتلبيس فى أمر الدنيا حرام أيضا) ، وهو مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزىء بالله اذ قصد بطاعة الله تعالى مرآة عبد

ضعيف لا يملك له ضرا ولا نفعا : ماذلك إلا لانه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرب اليه منه، ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الاصغر : ولو لم يكن فى الرياء إلا أن يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية ، ولعمرى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا إلا أن الرياء هو الكفر الخفى لان المرائى عظم فى قلبه الناس فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع (فقصده تعظيم الناس بالسجود لاقصد تعظيم الله فكان ذلك قريبا من الشرك) : إلا أنه قصد تعظيم نفسه فى قلب من عظم عنده باظهاره من نفسه صورة التعظيم لله فعند هذا كان شركا خفيا .

٩٩ — ويقول الغزالى ان أغلظ الرياء هو الرياء بالاصول وأغلظها الرياء بأصل الايمان (وصاحبه منافق مخلد فى النار ، وهو كمن يعتقد كفرا أو بدعة وهو يظهر خلافه) ويليه الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين (كأن يصوم رمضان وهو يشتهى خلوة من الخلق ليفطر)،

ويليه الرياء بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصى ولكنه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولايثار لذة الكسل على مايرجى من الثواب ثم يبعثه الرياء على فعلها (كحضور الجماعة في الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنازة، وهذا أيضا عظيم ولكنه دون ماقبله) . ويلي الرياء بأصول العبادات الرياء بأوصاف العبادات وهذا على ثلاث درجات :

(١) أن يرائى بفعل مافي تركه نقصان العبادة (كالذي اذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات) وهذا استهزاء ممقوت .

(٢) أن يرائى بفعل مالانقصان في تركه ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته (ككثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت).

(٣) أن يرائى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا (كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الاول) ، والكل مذموم .

. وللمرائي مقصود لامحالة ، وللمراءى لاجله ثلاث درجات

(ممقوتة كلها) : (١) أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية (كأن يظهر الحكمة على سبيل الوعظ وقصده التحبب الى امرأة أو غلام لاجل الفجور : أو يظهر الورع ليعرف بالامانة فيولى الاوقاف أو مال الايتام فيأخذها) : ويقرب من هؤلاء وان كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها (كأن تجحد وديعة) ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى (ويتصدق بالمال في مثالنا ليقال أنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره) (٢) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا (كالذى يشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الاموال ويرغب في نكاحه النساء الجميلات أو الشريفات)

(٣) أن لا يقصد نيل وادراك حظ ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر اليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة (كالذى يدعى الى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم)

١٠٠ — ويقول الغزالى ان الرياء جلى وخفى ، فالجلى هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه ،

وأخفى منه قليلا هو مالايحمل على العمل بمجرده الا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله ، وأخفى من ذلك مالايؤثر فى العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن فى القلب ومهما لم يؤثر فى الدعاء الى العمل لم يمكن أن يعرف الا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته ، وأخفى من ذلك أن يختفى بحيث لايريد الاطلاع ولايسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك اذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه ، فان قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ، وكل ذلك يوشك أن يحبط الاجر ولايسلم منه الا الصديقون ، ولكن ليس كل شوب محبطا للاجر ومفسدا للعمل ، اذ السرور أقسام لايكره منها الا أن يكون فرحه لقيام منزلته فى قلوب الناس ، فيحمد فرحه بجميل نظر الله له باطلاع الخلق على الجميل من أحواله « قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا » وان يستدل باظهار الله الجميل وستره القبيح عليه فى الدنيا انه كذلك يفعله فى الآخرة (للحديث الشريف ماستر الله على عبد ذنبا فى الدنيا الا ستره عليه فى الاخرة) ، وان يسر باقتداء المطلعين به فى الطاعة (لان

له زيادة على اجر العلانية بما اظهر آخرا ، اجر السر بما قصد اولا من اخفاء الطاعة والاخلاص لله ، ومثل اجر اعمال المقتدين به) : وان يفرح بطاعة المطلعين على طاعته فى مدحهم ويحبهم للمطيع وبميل قلوبهم الى الطاعة (ويكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم اياه) .

١٠١ — واذا عقد العبد العبادة على الاخلاص ثم ورد عليه بعد الفراغ سرور بمجرد بالظهور من غير اظهار فهذا لا يفسد العمل إذ العمل قد تم على نعت الاخلاص سالما عن الرياء . ويقول الغزالى ان الاظهار قسمان : (١) اظهار نفس العمل كالصدقة فى الملأ لترغيب الناس فيها الحديث القائل «من سن سنة حسنة فعمل بها ، كان له أجرها وأجر من تبعه» . (٢) أن يتحدث

بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم اظهار العمل نفسه والخطر فى هذا أشد ، لان مؤنة النطق خفيفة على اللسان وقد تجرى فى الحكايات زيادة ومبالغة ، وللنفس لذة فى اظهار الدعاوى العظيمة ، إلا أنه لو تطرق اليه الرياء لم يؤثر فى افساد العبادة

الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه اهون ؛ والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم اخلاصه وصغر نفسه فى عينه واستوى عنده مدحهم، وذمهم وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة فى الخير بسببه؛ فهو جائز بل هو مندوب اليه ان صفت النية وسلمت عن جميع الآفات لأنه ترغيب فى الخير والترغيب فى الخير خير .

١٠٣ — والاصل فى الاخلاص استواء السريرة والعلانية (والعلانيـــة اذا اطلع عليه لم يستحى منه) ، ولا يخلو الانسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لاسيما ماتختلج به الخواطر فى الشهوات والامانى والله مطلع على جميع ذلك ، فارادة العبد لاخفائها ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك ، بل المحظور أن يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك ، ويقول الغزالى ان للصادق الذى لا يرائى ستر المعاصى ويصح قصده فيه ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه (١) أن يفرح بستر الله

عليه واذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره فى القيامة إذ ورد فى الخبر أن من ستر الله عليه فى الدنيا ذنبا ستره الله عليه فى الآخرة ، وهذا غم ينشأ من قوة الايمان

(٢) أنه قد علم أن الله

تعالى يكره ظهور المعاصى ويحب سترها للحديث الشريف « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله » فهو وان عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله ، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضا ، وهذا ينشأ من قوة الايمان بكراهة الله ظهور المعاصى .

(٣) أن يكره ذم

الناس له به (كما يكره حمدهم) من حيث أن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى وذكره ، وهذا أيضا من قوة الايمان .

(٤) أن يكون ستره

ورغبته فيه لكراهته ذم الناس من حيث يتأذى بطبعه فان الذم مؤلم للقلب ، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الانسان به عاص وانما يعصى اذا جزعت نفسه من

ذم الناس ودعته الى مالايجوز حذرامن ذمهم (لانه لايجوز أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله) .

(٥) أن يكره الذم (وكرهه ذمه لغيره أيضا) من حيث أن الذام قد عصى الله تعالى به وهذا من الايمان . (٦) أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر اذا عرف ذنبه . (٧) مجرد الحياء من القبائح اذا شوهدت منه ، وهو خلق كريم (وأحسن منه أن تستحي من الله) . (٨) أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره ويقتدى به ، وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في اظهار الطاعة ويختص ذلك بمن يقتدى به وبهذه العلة أيضا ينبغي أن يخفي العاصي أيضا معصيته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه .

١٠٣ — ومن الناس من يترك العمل (الطاعات) خوفا من أن يكون مرائيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان ، ويقول الغزالي بل الحق فيما يترك من الاعمال وما لا يترك لخوف الآفات أن : (١) الطاعات اللازمة

للبدن التى لاتتعلق بالغير ولالذة فى عينها (كالصوم والصلاة والحج) فخطرات الرياء فيها ثلاث احداها مايدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين فهذا مما ينبغى أن يترك لانه معصية لاطاعة فيه فانه تدرع بصورة الطاعة الى طلب المنزلة . فان قدر الانسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء فليشتغل بالعمل ، الثانية أن ينبعث لاجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها فلا ينبغى أن يترك العمل لانه وجد باعثا دينيا فليشرع فى العمل وليجاهد نفسه فى دفع الرياء وتحسين الاخلاص بالزام النفس كراهة الرياء والاباء عن القبول ، الثالثة أن يعقد على الاخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه فينبغى أن يجاهد فى الدفع ولايترك العمل لكى يرجع الى عقد الاخلاص ويرد نفسه اليه قهرا حتى يتمم العمل (فمن مكايد الشيطان ترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا انه مراء فيعصون الله بهذا لانه أساء الظن بالمسلمين ، ثم ان كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة ، وترك العمل خوفا من قولهم أنه مراء

هو عين الرياء) . (٢) مايتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والاخطار : فالامارة مثلا والخلافة من أفضل العبادات اذا كان ذلك مع العدل والاخلاص ، فاذا صارت الولاية محبوبة (لحب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الامر) كان الوالى ساعيا فى حظ نفسه ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح فى جاهه وولايته وان كان حقا ويقدم على مايزيد فى مكانته وان كان باطلا وعند ذلك يهلك والحق أن الخواص الأقوياء فى الدين لاينبغى أن يمتنعوا من تقلد الولايات وأن الضعفاء لاينبغى أن يدوروا بها فيهلكوا ، وأعني بالقوى الذى لاتميله الدنيا ولا يستعزه الطمع ولا تأخذه فى الله لومة لائم . وأما القضاء فحكمه حكم الامارة ينبغى أن يتركه الضعفاء ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضى على القضاء الا بمداهنتهم واهمال بعض الحقوق لاجلهم ولاجل المتعلقين بهم اذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه ، فليس له أن يتقلد القضاء وأن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولايكون خوف العزل عذرا

مرخصا له فى الاهمال أصلا بل اذا عزل سقطت العهدة عنه فينبغى أن يفرح بالعزل أن كان يقتدى لله . وبالجملة مايجده أخف على قلبه فهو فى الا كثر أضر عليه لان النفس لا تشير الا بالشر وقاما تستلذ الخير وتميل اليه وان كان لا يبعد ذلك أيضا فى بعض الاحوال : وهذه الامور لا يمكن الحكم على تفاصليها بنفى واثبات فهو موكول الى اجتهاد النابت لينظر فيــــه لدينه ويدع مايريبه الى مالا يريبه : ثم قد يقع غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة ولاخلاف ان تفرقة المــال فى المباحات فضلا عن الصدقات افضل من امساكه . والواعظ الصادق المخلص فى وعظه غير مريد رياء الناس علامات احداها انه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا وأغزر منه علما والناس له اشد قبولا : فرح به ولم يحسده (ولا بأس بالغبطة وهو ان يتمنى لنفسه مثل علمه) والاخرى ان الا كابر اذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقى كما كان عليه ، والاخرى ان لا يحب اتباع الناس له فى الطريق والمشى خلفه فى الاسواق الخ . .

١٠٤ – مراقبة الله فى التوبة : ويقول الغزالى ان
ان التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة امور مرتبة
اولها العلم وهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين
العبد وبين كل محبوب ، فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين
غالب على قلبه ، ثار من هذه المعرفة تألم للقلب وتأسف
بسبب فوات المحبوب بفعله (يسمى ندما) وتتمكن مرارة
تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل
كراهية وبالرغبة نفرة (دائمة) ، فاذا غلب هذا الألم على
القلب واستولى انبعث منه فى القلب حالة اخرى تسمى
ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال (بالترك لكل محظور
هو ملابس له واداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال)
وبالماضى (بتلافى مافات بالجبر والقضاء ان كان قابلا للجبر)
وبالمستقبل (بالعزم على ترك الذنب المفوت المحبوب الى
آخر العمر بان يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد
وثيق ان لا يعود الى تلك الذنوب ولا الى امثالها) . وكثيرا ما
يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالمقدمة

والترك كالثمرة .

١٠٥ — والتوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة (العلم والندم والترك) ، وهى واجبة على الفور اذ معرفة كون المعاصى مهلكات هو واجب على الفور ، ووجوب التوبة عام فى الاشخاص والاحوال فلا ينفك عنه أحد البته . ويقول الغزالى ان ظاهر الكتاب قد دل على هذا اذ قال تعالى «وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » فعمم الخطاب ، ونور البصيرة أيضا يرشد اليه اذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب الى الشيطان ولا يتصور ذلك الا من عاقل ، واذا كانت الشهوات تكمل فى الصبا والشباب قبل كمال العقل (اذ كمال العقل انما يكون عند مقارنة الاربعين واصله انما يتم عند مراهقة البلوغ ومباديه تظهر بعد سبع سنين ،) فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان (ووقع للقلب به أنس والف لامحالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ، ثم يلوح العقل شيئا فشيئا على التدريج فان لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان ، وأن كمل العقل

وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ورد الطبع على سبيل القهر الى العبادة . فالغزالى يرى أن كل بشر فلا يخلو عن معصية أما بجوارحه وأما بالهم بالذنوب بقلبه وأما بوسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله وأما بغفلة وقصور فى العلم بالله وصفاته وأفعاله) ، ويقول انه « لا يتصور الخلو فى حق الآدمى عن هذا النقص وانما يتفاوتون فى المقادير فأما الاصل فلابد منه ، فاذا بلغ كافرا فعليه التوبة من جهله وكفره ، واذا بلغ مسلما تبعا لابويه غافلا عن حقيقة اسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الاسلام ، فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته والاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع الى قالب حدود الله فى المنع والاطلاق والانفكاك والاسترسال » .

ويقول « ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » (أى عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو) ،

ومن ترك المبادرة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير ريناوطبعا فلايقبل المحو ، والثانى أن يعاجله المرض أوالموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو » .

١٠٦ – ويقول الغزالى ان التوبة اذا استجمعت شرائطها (بأن كانت صحيحة نصوحا خالية من الشوائب) فهى مقبولة لامحالة ، لان كل قلب سليم مقبول عند الله ، والقلب خلق سليما فى الاصل وكل مولود يولد على الفطرة وانما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها ، ونار الندم تحرق تلك الغبرة ونور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة . ولا يعني الغزالى من وجوب قبول التوبة الصحيحة على الله إلا مايريده القائل أن العطشان اذا شرب وجب زوال العطش ، وليس فى شيء من ذلك مايريد المعتزلة بالايجاب على الله تعالى ؛ أى يرى ان الله خلق الطاعة مكفرة المعصية والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلا للعطش والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة

فلا واجب على الله تعالى ولكن ماسبقت به ارادته الازلية فواجب كونه لامحالة .

١٠٧ — والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله تعالى فى ترك أو فعل ، وتنقسم الذنوب الى صغائر وكبائر ، ويرى الغزالى أن الكبائر على ثلاث مراتب :

(١) مايمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر (ومنه الشرك بالله وكفر الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته) ويليه الاصرار على معصية الله وتناول الدين بالاغواء والدعاء الى البدعة والترغيب فى المعاصى وتهييج أسباب الجراءة على الله ، وبعضها أشد من بعض وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه .

(٢) مايسد باب حياة النفوس اذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة ، فقتل النفس لامحالة من الكبائر وان كان دون الكفر ، لان ذلك يصدم عين المقصود (التوصل بالدنيا للآخرة بمعرفة

الله تعالى) وهذا يصدم وسيلة المقصود، ويتلو هذا الكبيرة قطع الاطراف وكل ما يفضي الى الهلاك حتى الضرب وبعضها اكبر من بعض ، ويقع فى هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لانه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور فى قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود ، وأما الزنا فانه يشوش الانساب ويبطل التوارث والتناصر ؛ ويحرك من الاسباب مايكاد يفضى الى التقاتل (ولذا ينبغى أن يكون فى الرتبة دون القتل لانه يفوت تمييز الانساب وينبغى أن يكون أشد من اللواط لان الشهوة داعية اليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته) .

(٣) مايتعلق بالأموال

فانها معايش الخلق فينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس ، ولذا اذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر (كالسرقة واكل مال اليتيم وتفويتها بشهادة الزور واخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس ـ الخفية التي يحق بها باطلا او يبطل بها حقا فتغمس صاحبها

فى النار) . وأما أكل الربا فليس فيه إلا اكل مال الغير بالتراضى مع الاخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد ان تختلف الشرائع فى مثله ، واذا لم يجعل الغصب الذى هو اكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضى الشرع من الكبائر فأكل الربا اكل برضا المالك ولكن دون رضى الشرع ، والمصير الى ان اكل دانق بالخيانة او الغصب او الظلم (كاخراج الناس من مساكنهم او بلادهم او اوطانهم) من الكبائر فيه نظر وذلك واقع فى مظنة الشك انه غير داخل تحت الكبائر (لكن يعتبر ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم من الكبائر ان يأكل الربا وهو يعلم) .

أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بان يكون من الكبائر ولكن هذا لايجرى فى قطرة من الخمر (فلو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وانما شرب ماء نجس) . وأما القذف فليس فيه الا تناول الاعراض والاعراض دون الاموال فى الرتبة ولتناولها مراتب وأعظمها التناول بالقذف بالاضافة الى فاحشة الزنا فهو يلحق بالكبائر

فى حق من عرف حكم الشرع . فاما من ظن ان له ان يشهد وحده أو ظن انه يساعده على الشهادة غيره فلا ينبغى أن يجعل فى حقه من الكبائر . وأما السحرفان كان فيه كفر فكبيره والا فعظيمة بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره (ويراد بالسحر كل كلام يغير الانسان وسائر الاجسام عن موضوعات الخلقة) . وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا ايضا ينبغى ان يكون من حيث القياس فى محل التوقف (وجملة عقوق الوالدين ان يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما وان سألاه حاجة فلا يعطيهما او يسباه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما)

١٠٨ — ويقول الغزالى ان الكبير والصغير من المضافات ، ومامن ذنب الا وهو كبير بالاضافة الى مادونه وصغير بالاضافة الى مافوقه (فالمضاجعة مع الاجنبية مثلا اى اصابتها بكل شىء الا المسيس كبيرة بالاضافة الى النظرة صغيرة بالاضافة الى الزنا ، ويرى مع هذا ان الصغيرة تكبر باسباب منها : الاصرار والمواظبة (لان القليل من السيئات

اذا دام عظم تأثيره فى اظلام القلب ، الا ان الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر كالمراودة والمقدمات فى الزنا والشاحنة السابقة والمعاداة فى القتل ، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق اليها عود ربما كان العفو فيها ارجى من صغيرة واظب الانسان عليها عمره) ، واستصغار الذنب (لانه كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله لان استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهته له وذلك يمنع من شدة تأثره به ، واستصغاره يصدر عن الالف به وذلك يوجب شدة الاثر فى القلب ولذلك لايؤاخذ بمايجرى عليه فى الغفلة) ، والسرور بالصغيرة والفرح والتبجح بهما واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ، والتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وامهاله اياه ، واتيانه الذنب واظهاره بان يذكره بعد اتيانه او يأتيه فى مشهد غيره (لان ذلك تحريك لرغبة الشر فيمن اسمعه ذنبه او اشهده فعله ، ويتفاحش الامر اذا رغب الغير فيه

وحمله عليه وهيأ اسبابه له ، وكذلك يكبر الذنب - فلا تكفره الصلوات الخمس - اذا كان المذنب عالما يقتدى به وفعله بحيث يرى ذلك منه) .

١٠٩ - ويقول الغزالى أن شرط صحة التوبة فيما يتعلق بالماضى أن يرد فكره الى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره يوما يوما وينظر الى الطاعات ما الذى قصر فيه منها (فيؤديها) والى المعاصى ما الذى قارفه منها فينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد (كشرب خمر مثلا) فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبان يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى من الحسنات بقدر تلك السيئات (فيكفر شرب الخمر مثلا بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب اليه) . وعد جميع المعاصى غير ممكن وانما المقصود سلوك الطريق المضادة فان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت الى القلوب بمعصية فلا يمحوها الا نور يرتفع اليها بحسنة تضادها ، فلذلك

ينبغي ان تمحي كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من ان يواظب على نوع واحد من العبادات وان كان ذلك ايضا مؤثر في المحو ، واما مظالم العباد ففيها ايضا معصية وجناية على حق الله تعالى فان الله تعالى نهى عن ظلم العباد ايضا ، فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والاتيان بالحسنات التي هي اضدادها (فيقابل ايذاء الناس بالاحسان اليهم ، ويكفر غصب اموالهم بالتصدق بملكه الحلال ، ويكفر تناول اعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على اهل الدين واظهار مايعرف من خصال الخير من اقرانه وامثاله ، ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب الخ .) ثم اذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه مالم يخرج عن مظالم العباد ، فليستحلهم أو ليؤد حقوقهم ان قدر والا فليكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين ارباب المظالم .

١١٠ — وظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين

حرقة الندم وشدة المجاهدة بالترك فى المستقبل ، فاذا فرضنا تائبين احدهما سكنت نفسه عن النزوع الى الذنب والآخر بقى فى نفسه نزوع اليه وهو يجاهدها ويمنعها فايهما أفضل؟ يقول الغزالى ان الذى انقطع نزوع نفسه له حالتان :

(١) ان يكون انقطاع نزوعه اليها بفتور فى نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد أفضل من هذا اذ تركه بالمجاهدة دليل قاطع على قوة النفس واليقين والدين

(٢) ان يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة اذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع فلا تهيج الا بالاشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها ، لان الجهاد ليس مقصودا لعينه فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت . ويقول الغزالى ان تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال فى حق المبتدىء والغافل لان ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع الى مثله .

وشرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر فى النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته، ولكن ان كان شابا فينبغى أن يتفكر فى لذة النظر الى وجه الله تعالى فقط ، ولاينبغى أن يطيل فكره فى كل ماله نظير فى الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة ، وكذلك تذكر الذنوب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدىء أيضا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل) .

١١١ — ويقول الغزالى ان التائبين فى التوبة على أربع طبقات : (١) ان يتوب العاصى ويستقيم على التوبة الى آخر عمره ولا يحدث نفسه بالعود الى ذنوبه الا الزلات التى لا ينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبة النبوة (وهى أعلى رتبه) : (٢) تائب سالك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وترك كبار الفواحش كلها الا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزما على الاقدام عليها ، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها

التي تعرضه لها، وهذه رتبة عالية وان كانت نازلة عن الطبقة الاولى، وهي أغلب أحوال التائبين) (٣) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهرها الا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القصد والشهوة، وانما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود (في حال قضاء الشهوة) لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها ، وعند الفراغ يتندم لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم ، فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو فعسى الله أن يتوب عليه (٤) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود الى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته ، فهذا من جملة المصرين يخاف عليه سوء الخاتمة فان ختم له بالسوء شقي وان ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه .

١١٣ – والاصرار على الذنوب لايكون لفقد الايمان (إلا اذا كان كافرا شاكا فى صدق الرسل) ، بل يكون لضعفه إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب فى الآخرة ، ولكن يرى الغزالى أن سبب وقوعه فى الذنب أمور نرى ذكرها مع علاجها الذى رآه لها :

(١) أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جعلت متأثرة بالحاضر . ويرى الغزالى أن علاج هذا السبب هو الفكر بأن يقرر على نفسه ان غدا لناظره قريب والمتأخر اذا وقع صار ناجزا ، ويذكر نفسه أنه أبدا فى دنيـاه يتعب فى الحال لخوف أمر فى الاستقبال .

(٢) أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهى فى الحال ، وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والالف ، والعادة طبيعة خامسة والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس. ويرى الغزالى أن علاج هذا السبب هو معالجة اللذة الغالبة عليه وتكليف نفسه تركها لينعم بنعيم الآخرة الدائم الخالى

من الشوائب . (٣) أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو فى الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره : إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلايزال يسوف التوبة والتكفير . ويرى الغزالى أن علاج التسويف فى التوبة هو بالتفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف لان المسوف يبنى الامر على ماليس اليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وان بقى فلايقدر على الترك غدا كما لايقدر عليه اليوم لان الشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتياد .

(٤) أنه مامن مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لاتوجب العقوبة ايجابا لايمكن العفو عنها ، فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى . ويرى الغزالى أن علاج هذا السبب بأن يعلم أن انتظار عفو الله انتظار أمر ممكن ولكنه قد لايمكن ولايكون .

اما إذا كان المذنب كافرا ، فيرى الغزالى أن يعالج

الكفر والشك بالاسباب التى تعرفه صدق الرسل وبعلم قريب يليق بحد عقله إذ ليس فى العقلاء الا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وان اختلفوا فى كيفيته ، فان صدقوا فقد أشرف على عذاب يبقى أبد الآباد (من نار للبدن وألم فى القلب أى نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة) وان كذبوا فلا يفوته الا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف ان كان عاقلا مع هذا الفكر .

١١٣ — مراقبة الله فى الرجاء والخوف : ويقول الغزالى أن الرجاء هو ارتياح القلب (ولذته) لانتظار محبوب (متردد فيه غير مقطوع به) تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . والرجاء باعث بطريق الرغبة يضاده اليأس (الذى يمنع من التعهد ويصرف عن العمل ، والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له بل هو باعث آخر بطريق الرهبة إذ هو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال) . فاذا حال الرجاء

يورث طول المجاهدة بالاعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الاحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته ، فان كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمني (لان الرجاء انتظار لاجل حصول أكثر أسبابه ، فان كان الانتظار مع انخرام أسبابه واضطرابها فيسمى غرورا وحمقا ، وان لم تكن الاسباب معلومة الانتفاء أى ان كان انتظارا من غير سبب فيسمى تمنيا) .

١١٤ – ويقول الغزالى أن المحمود من الخوف هو الاعتدال والوسط ، فاما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى رقة النساء وهو يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل النفع ، وأما المفرط فانه الذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج الى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضا لانه يمنع من العمل ، وقد يخرج الخوف أيضا الى المرض

والضعف والى الوله والدهشة وزوال العقل والموت ، فالمراد من الخوف هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالا لانه بالحقيقة نقصان لان منشأه الجهل (لانه ليس يدرى عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفا لان المخوف هو الذى يتردد فيه) والعجز (لأنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه) فاذا هو محمود بالاضافة الى نقص الآدمى وانما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به ، وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الاسباب الموصلة الى الله تعالى وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل ، فكل ما يقدح فى هذه الاسباب فهو مذموم ، وأفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التى يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران و نقصان بالاضافة الى أمور ، وان كان بعض أقسامها فضيلة بالاضافة الى أمور أخر .

١١٥ – ويقول الغزالى ان الخوف لا يتحقق إلا

بانتظار مكروه والمكروه اما أن يكون مكروها فى ذاته (كالنار) واما أن يكون مكروها لانه يفضى الى المكروه (كالذى يغلب عليه خوف الموت قبل التوبة أو نقضها و نكث العهد أو ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو زوال رقة القلب أو الميل عن الاستقامة أو استيلاء العادة فى اتباع الشهوة المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى الى حسناته التى اتكل عليها او البطر بكثرة نعم الله عليه او الاشتغال عن الله بغير الله او الاستدراج بتواتر النعم او انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله مالم يكن يحتسب او تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة والغش واضمار السوء او مالا يدرى انه يحدث فى بقية عمره او تعجيل العقوبة فى الدنيا والافتضاح قبل الموت او الاغترار بزخارف الدنيا او إطلاع الله على سريرته فى حال غفلته عنه او خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء او خوف السابقة التى سبقت له فى الازل) ، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى الى المخوف ، فمن يخاف استيلاء العادة

عليه فيواظب على الفطام عنها ، والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس ، ... وهكذا الى بقية الاقسام .

١١٦ – ويقول الغزالى ان الخوف لايتصور أن ينفك مؤمن عنه وان ضعف ويكون ضعف خوفه بسبب ضعف معرفته وايمانه ، والرجاء والخوف متلازمان لان كل من رجا محبوبا فلابد وأن يخاف فوته ، ويجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولايلتفت الى الآخر فى الحال لغفلته عنه ، وهذا لان من شروط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه إذ المعلوم لايرجى ولايخاف فاذا المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة ، فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان لامحالة اذا كان ذلك الامر المنتظر مشكوكا فيه ، وأحد طرفى الشكوك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الاسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما

على الآخر ؛ فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفى الخوف بالاضافة اليه وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى « ويدعوننا رغبا ورهبا » .

١١٧ — ويقول الغزالى أن الخوف من الله تعالى على مقامين : (١) الخوف من عذابه : وهو خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الايمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الايمان ، وانما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر فى أهوال يوم القيامة (يوم ينفخ فى الصور) وأصناف العذاب فى الآخرة (من طول يوم القيامة وصفة العرق والمساءلة والمظالم وصفات النار) وبالنظر الى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم (أو سماعها)

(٢) الخوف من الله : وهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته مايقتضى الخوف المطلعين على سر قوله « ويحذركم الله نفسه » وقوله « اتقوا الله حق تقاته »(ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد لايستند الى بصيرة فلا جرم يضعف

ويزول على قرب) . من عرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج الى علاج لجلب الخوف ، لان الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الازلى الى ماخلق له ، فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخروا لاسبابها شاءوا أم أبوا ، ولذا يرى الغزالى أنه ليس للمنطم فى أمواج القدر الا التسليم فيه واستقراء خفى السابقة من جلى الاسباب الظاهرة على القلب والجوارح « فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة إذ كل ميسر لما خلق له ، وان كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا ، كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ، ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيدان نيران الخوف اشعالا ولا يمكنها من الانطفاء »

١١٨ — ويقول الغزالى ان سوء الخاتمة على

رتبتين احداهما أعظم من الأخرى؛ فأما الرتبة العظيمة الهائلة فان يغلب على القلب عند الموت وظهور أهواله أما الشك واما الجحود، الثانية وهى دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره. وأما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه فى شيئين أحدهما البدعة بأن يعتقد الرجل فى ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه اما برأيه ومعقوله ونظره الذى به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يغتر؛ وأما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه؛ ربما ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا اذ حال الموت كشف الغطاء ومبادىء سكراته منه فقد ينكشف به بعض الامور؛ فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه، لم يظن بنفسه أنه أخطأ فى هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه الى رأيه الفاسد وعقله الناقص؛ بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له، إذ لم يكن

عنده فرق بين ايمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته من الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها ، فان اتفق زهوق روحه فى هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود الى أصل الايمان فقد ختم الله له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله والزهد والصلاح لا يكفى لدفع هذا الخطر بل لا ينجى منه الا الاعتقاد الحق ، وكل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض فى البحث فقد يعرض لهذا الخطر . وأما السبب الثانى فهو ضعف الايمان فى الاصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ، فيصير بحيث لا يبقى فى القلب موضع لحب الله تعالى الا من حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر فى مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو فيسود فلا يزال يطفىء ما فيه من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعا ورينا ، فاذا جاءت سكرات الموت استشعر فراق الدنيا (الغالب حبها على قلبه) فيتألم ، ويرى ذلك من

الله فيختلج ضميره بإنكار ماقدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث أنه من الله فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب ، فاذا اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا .

وأما الخاتمة الثانية التى هى دون الاولى وليست مقتضية للخلود فى النار فلها أيضا سببان : أحدهما كثرة المعاصى وأن قوى الايمان والآخر ضعف الايمان وان قلت المعاصى ، وذلك لان مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوة ورسوخها فى القلب بكثرة الالف والعادة ، وجميع ما ألفه الانسان فى عمره يعود ذكره الى قلبه عند ميله فان كان ميله الاكثر الى الطاعات كان أكثر مايحضره ذكر طاعة الله ، وان كان ميله الاكثر الى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عند الموت ، فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى .

الفصل السادس

التفكر فى خلق الله

١١٩ — معنى الفكر : ويقول الغزالى ان معنى الفكر هو احضار معرفتين فى القلب (مثل أن الابقى أولى بالايثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا) ليستثمر منهما معرفة ثالثة (وهى فى مثالنا أن الآخرة أولى بالايثار) فاحضار المعرفتين السابقتين للتوصل به الى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتأملا وتدبرا (غير أن التدبر والتأمل والتفكر عبارات مترادفة على معنى واحد ، والتذكر والاعتبار والنظر مختلفة المعانى وان كان أصل المسمى واحدا ، فالاعتبار ينطلق على احضار المعرفتين من حيث أنه يعبر منهما الى معرفة ثالثة ، وان لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر وفائدته تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحى عنه ، وأما النظر

والتفكر فيقع عليه من حيث أن فيه طلب معرفة ثالثة ، وفائدته تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة .

« فحاصل حقيقة التفكر يرجع الى احضار معرفتين للتوصل بهما الى معرفة ثالثة ، وأما ثمرة الفكر فهى العلوم والاحوال والاعمال ، ولكن ثمرته الخاصة العلم لاغير ، فاذا حصل العلم فى القلب تغير حال القلب ، واذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح .. فالفكر اذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وهذا هو الذى يكشف عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لان الفكر ذكر وزيادة ، وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، ولذا قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة » .

١٢٠ — *مجارى الفكر* : ويقول الغزالى أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين (المعاملة بين العبد وبين الرب) وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين ، وجميع أفكار العبد (الدينية) أما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، واما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ، ومحب الله تعالى (كأى عاشق آخر) ينبغى أن لا يعدو نظره وتفكيره محبوبه ،

وتفكره محصور فى أقسام : (١) تفكر فى صفات نفسه لتميز المحبوب منها (من المحبوب) عن المكروه ، وكل ماهو مكروه عند الله أومحبوب ينقسم الى ظاهر كالطاعات والمعاصى (التى تتعلق بالبدن واعضائه) والى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التى محلها القلب، ويجب فى كل واحد من المكاره التفكر فى ثلاثة أمور : التفكر فى أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ،فان كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه ، وهل هو متصف بهذا المكروه فى الحال فيتركه أو هو متعرض له فى الاستقبال فيحترز عنه أو قارفه فيما مضى من الاحوال فيحتاج الى تداركه (وبعكس ذلك يكون التفكر فى المحبوبات ليعمر القلب بالاخلاق المحمودة وينزه الباطن والظاهر) .

(٢) الفكر فى جلال الله وفيه مقامان :

الفكر فى ذاته وصفاته ومعانى اسمائه ، وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تتفكروا فى ذات الله (لان العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر اليه الا الصديقون ثم لايطيقون دوام النظر) أما النظر الثانى فهو النظر فى أفعاله وبدائع أمره فى خلقه.

١٣١ — وكل ما فى الوجود مما سوى الله فهو فعله

وخلقه ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمته وقدرته وجلاله وعظمته ؛ وقد ذكر الغزالى من ذلك :(١) خلق الانسان من نطفة ؛ فقد قال تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقال « قتل الانسان ما أكفره ! من أى شيء خلقه ؟ ! من نطفة خلقه فقدره ؛ ثم السبيل يسره ؛ ثم أماته فأقبره ؛ ثم اذا شاء أنشره » ؛ ويقول الغزالى « أنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها فى الاصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزاءها المتشابهة الى أجزاء مختلفة فأحكم العظام فى أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة ، وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيأتها ثم حماها بالاجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الاقذاء عنها ثم أظهر فى مقدار عدسة منها

صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو
ينظر اليها ، ثم شق اذنيه وأودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها
ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الاذن لتجمع الصوت
فترده الى صماخها ولتحس بدبيب الهوام اليها وجعل
فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة مايدب فيها ويطول
طريقه فيتنبه من النوم صاحبها ، ثم رفع الانف من وسط
الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم
ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته وليستنشق
بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحا لحرارة
باطنه ، وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما
فى القلب ، وزين الفم بالاسنان لتكون آلة الطحن والكسر
والقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب
صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم ،
وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد
منفذه وليتم بها حروف الكلام ، وخلق الحنجرة وهيأها
لخروج الصوت ، وخلق اللسان قدرة للحركات والتقطيعات

لتتطع الصوت فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ، ثم خلق الحناجر مختلفة الاشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان . . . ، ثم زين الرأس بالشعر والاصداغ وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالاهداب ، ثم خلق الاعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لاحالته الى دم توصله العروق الى سائر أطراف البدن (يخدمها الطحال بجذب السوداء عنها والمرارة بجذب الصفراء والكلية بجذب المائية إذ تخدمها المثانة بقبول الماء ثم تخرجه فى طريق الاحليل) .. ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد الى المقاصد ، وعرض الكف وقسم الاصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الاربعة فى جانب والابهام فى جانب لتدور الابهام على الجميع . . . ، ثم خلق الاظفار على رؤسها زينة للانامل وعمادا لها من ورائها

حتى لاتنقطع .. ، ثم خلق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث .. ، ولما ضاق الرحم عن الصبى هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ .. ، ثم لما خرج واحتاج الى الغذاء هداه الى التقام الثدى، ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الاغذية الكثيفة دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا ، وخلق الثديين وجميع فيهما اللبن وانبت منهما حلمتين على قدر ماينطبق عليهما فم الصبى ثم فتح فى حلمة الثدى ثقبا ضيقا حتى لايخرج اللبن منه الا بعد المص تدريجا فان الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، وأخر خلق الاسنان الى تمام الحولين حيث يحتاج الى طعام غليظ يحتاج الى المضغ والطحن .. وأخرج تلك اللثات اللينة ، ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزا عن تدبير نفسه .. »

(٢) ومن آياته أن خلق

الارض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا ليمشوا فى مناكبها وأرسى فيها الجبال اوتادا لها تمنعها من أن تميد

واذا انزل عليها المـاء اهتزت وربت واخضرت وانبتت عجائب النبات وخرجت منها اصناف الحيوانات ؛ واودع المياه تحتها ففجر العيون واسال الانهـار تجرى على وجهها ، واخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حى فأخرج به فنون الاشجار والنبات مختلفة الاشكال والالوان والطعوم والصفات والارايح والطبائع والتعهد والمنافع فهذا يغذى وهذا يقوى وهذا يحى وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا يصفى الدم وهذا ينوم وهـذا يضعف ؛ وبعضه يستنبت ببث البذور فى الارض وبعضه بغرس الاغصان وبعضه يركب فى الشجر

(٣) ومن آياتـه الجـواهر

الموعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الارض

(٤) ومن آياته اصناف الحيوانات

وانقسامها الى مايطير والى مايمشى وانقسام مايمشى الى مايمشى على الرجلين والى مايمشى على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات ، ثم انقسامها فى المنافع والصور

والاشكال والاخلاق والطباع (وتأمل فى عجائب النملة او النحلة او العنكبوت وهى من صغار الحيوانات فى بنائها بيتها وفى جمعها غذاءها وفى الفها لزوجها وفى ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها وفى هدايتها الى حاجتها) . (٥) ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لاقطار الارض وسعتها وعجائب مافيها من الحيوانات والجواهر (وتأمل فى خلق الله اللؤلؤ وتدويره فى صدفة تحت الماء ، وانظر كيف انبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ، وتأمل ماعداه من العنبر واصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه .

(٦) ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الارض ولا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى بالعين شخصه وجملته (وانظر الى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط فى الماء كيف امسك الله تعالى بهذه الحكمة السفن وكل مجوف فيه هواء ــ على وجه الماء لا يغوص فيه ولا يرسب ، لان الهواء ينقبض عن الغوص فى الماء فلا ينفصل

عن السطح الداخل من السفينة ، فتبقى السفينة الثقيلة مع
قوتها وصلابتها معلقة فى الهواء اللطيف ، وانظر إلى عجائب
الجو ومايظهر فيه من الغيوم والبروق والرعود والامطار
والثلوج والشهب والصواعق) (٧) ومن
آياته ملكوت السماء وما فيها من الكواكب اذ قال تعالى
« أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها » فانظر
فيها وفى كواكبها وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها
واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤبها فى الحركة على الدوام من
غير فتور فى حركتها ومن غير تعب فى سيرها بل تجرى جميعا فى
منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص الى أن يطويها الله
تعالى طى السجل للكتب ، وتدبر عدد كواكبها واختلاف
ألوانها ثم انظر كيفية أشكالها ، ثم انظر الى مسير الشمس فى
فلكها فى مدة سنة وهى تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر
ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ، وانظر
ايلاج الله الليل فى النهار والنهار فى الليل وادخاله الزيادة
والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص ، وانظر الى امالته

مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف ، وقد قال تعالى « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » .

١٢٢ — ويقول الغزالى بعد كلامه عن فوائد السفر وأنه نوع حركة ومخالطة ، وان طريق الآخرة لايمكن سلوكها الا بتحسين الخلق وتهذيبه وأنه ماسمى السفر سفرا الا لانه يسفر عن الاخلاق وان فى مشاهدة آيات الله فى أرضه فوائد للمستبصر انه « مامن ذرة فى السموات والارض الاولها أنواع شاهدات لله تعالى بالوحدانية هى توحيدها ، وأنواع شاهدات لصانعها بالتقدس هى تسبيحها ولكن لايفقهون تسبيحها لانهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر الى فضاء سمع الباطن ، ومن ركاكة لسان المقال الى فصاحة لسان الحال ، ومن يسافر ليستقرىء هذه الشهادات من الاسطر المكتوبة بالخطوط الالهية على صفحات الجمادات لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقر فى موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرات » !! ...

١٢٣ – ذكر الموت وما بعده : ويقول الغـزالى أن طول الأمل له سببان أحدهما الجهل (إذ قد يعول الانسان على شبابه فيستبعد قرب الموت ، مع أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة) والآخر حب الدنيا لانه اذا أنس بها وبشهواتها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ؛ فيمني نفسه أبدا بما يوافق مراده ـ البقاء فى الدنيا ـ « فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج اليه من مال وأهـل ودار وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه ؛ فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه ، فان خطر له فى بعض الاحوال أمر الموت والحاجة الى الاستعداد له سوف ووعد نفسه » ، فلا يزال يسوف ويؤخر على التدريج يوما بعد يوم الى أن تخطفه المنية فى وقت لايحتسبه فتطول عند ذلك حسرته .

١٢٤ – ويقول الغزالى ان الألم فى سـكرات الموت شديد ، والقيـاس الذى يشهد له هو أن كل عضو

لا روح فيه لا يحس بالالم ، فاذا كان فيه الروح فالمدرك للالم هو الروح ، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الاجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الالم « فلو أصابته شوكة فالالم الذى يجده انما يجرى فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة ، وانما يعظم أثر الاحتراق لان أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار فتحسه الاجزاء الروحانيـة المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم ، وأما الجراحة فانما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار ، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه » لان (المنزوع مجذوب من كل عرق وعصب وجزء ومفصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق الى القدم حتى قالوا ان الموت لاشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض ، ولذا انقطع صوت الميت وصياحه لان الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهد كل قوة وضعف كل جارحة ، أما

العقل فقد شوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الاطراف فقد ضعفها ، ويود لو قدر على الاستراحة بالانين والصياح، فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه واربد حتى كأنه ظهر فيه التراب الذى هو أصل فطرته ؛ وترتفع الحدقتان الى أعالى أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقاص اللسان الى أصله وترتفع الانثيان الى أعالى موضعهما وتخضر أنامله : ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجيا فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه .. حتى يبلغ الى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتبدو له صفحة وجه ملك الموت - جميلة الصورة للمطيع ، قبيحة للعاصى ، ولن تخرج روحه مالم يسمع نغمة ملك الموت بأحد البشريين - إما بالجنة أو النار -) . ولذا كان المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ، ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى .

١٢٥ — ومعنى الموت تغير حال فقط إذ الروح باقية بعد مفارقة الجسد أما معذبة وأما منعمة ، ويقول الغزالى أن معنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عنه بخروجه عن طاعتها ، فان الاعضاء آلات للروح تستعملها حتى أنها لتبطش باليد وتسمع بالاذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الاشياء بالقلب ، والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الاشياء بنفسها من غير آلة ، فكل ماهو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وماهو لها بواسطة الاعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح الى الجسد ، ولايبعد أن تعاد الروح الى الجسد فى القبر ولايبعد أن تؤخر الى يوم البعث ، والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده ، وانما تعطل الجسد بالموت يضاهى تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع فى الاعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها ، والموت عبارة عن استعصاء الاعضاء كلها . وكل

الاعضاء آلات والروح هى المستعملة لها ؛ ومهما بطل تصرفها في الاعضاء لم تبطل منها العلوم والادراكات ولا بطل منها الافراح والغموم ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات ؛ والانسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت ؛ فالموت زمانة مطلقة فى الاعضاء كلها وحقيقة الانسان نفسه وروحه وهى باقية ؛ وتغير حاله من جهتين احداهما أنه سلب منه جميع أعضائه وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وماله الى عالم آخر لا يناسب هذا العالم ؛ والثانى أنه ينكشف له بالموت مالم يكن مكشوفا له فى الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ مالم يكن مكشوفا فى النوم وأول ماينكشف له مايضره وينفعه من حسناته وسيئاته (وقد كان ذلك مسطورا فى كتاب مطوى فى سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا) . . . وينكشف للمؤمن عقيب الموت من سعة جلال الله ماتكون الدنيه بالاضافة اليه كالسجن والمضيق »

١٣٦ — ذكر الجنة : ويقول الغزالى عند كلامه

عن الجنة وأصناف نعيمها « تفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الاحمر فى خيام من اللؤلؤ الرطب الابيض ، فيها بسط من العبقرى الاخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان يمشين فى درجات الجنان ، اذا اختالت احداهن فى مشيها حمل أعطافها سبعون الفا من الولدان ، عليها طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الابصار ، مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات فى الخيام ، فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون فى مقام أمين فى جنات وعيون ، فى جنات ونهر فى

مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها الى وجه الله الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم لايرهقهم قترة ولاذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لايخافون فيها ولايحزنون وهم من ريب المنون آمنون ، فهم فيهايتنعمون ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا في أنهار أراضيها من فضة وحصباؤها من مرجان وعلى أرض ترابها مسك أذفر و نباتها زعفران ويمطرون من سحاب ، فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور ويؤتون بأكواب وأي أكواب بأكواب من فضه مرصعه بالدر والياقوت والمرجان ..»

obeikandl.com

الباب الثانى

ما بينك وبين الناس

« المعاشرة والالفة والصحبة »

« عرفت روحي روحك بين كلمت نفسي نفسك ؛ ان الارواح لها أنفس كأنفس الاجساد ، وان المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا ويحابون بروح الله وان لم يلتقوا ، يتعارفون ويتكلمون وان نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل »

أويس بن عامر القرني

obeikandl.com

١٣٧ — فوائد المخالطة : أن من المقاصد الدينية والدنيوية مايستفاد بالاستعانة بالغير ولايحصل ذلك إلا بالمخالطة ، وذكر الغزالى لذلك سبع فوائد نجمعها فيما يلى

(١) التعليم والتعلم (إذ لايتصور ذلك الا بالمخالطة) ، والنفع (بان ينفع الناس بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة) والانتفاع (بالكسب والمعاملة) ، والتجارب والممارسة (ومن أهمها أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك لايقدر عليه فى الخلوة . وكل غضوب أوحقود أوحسود اذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه ؛ وهذه الصفات مهلكات فى أنفسها يجب اماطتها وقهرها ولايكفى تسكينها بالتباعد عما يحركها) .

(٢) التأديب (بالارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة فى تحمل أذاهم كسرا للنفس وقهرا للشهوات) والتأدب (بان يروض غيره بان يدعوهم الى الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) ، ونيل الثواب وانالته (بحضور الجنائز وعيادة المرضى والتهنئة على النعم وحضور العيدين وادخال السرور

على قلوب المسلمين ،) هذا على وجوب حضور الجمعة والجماعة في سائر الصلوات اذ لارخصة في تركه الا لخوف ضرر ظاهر) والتواضع (إذ لايقدر عليه في الوحدة ، وقد يكون الكبر سببا في اختيار العزلة)

(٣) الاستئناس والايناس : وهذا يرجع الى حظ النفس في الحال (فمؤانسة من لاتجوز مؤانسته حرام ، ويستحب الانس بالملازمين لسمت التقوى ، واذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعي النشاط في العبادة ، لان النفس لاتألف الحق على الدوام مالم تروح) .

١٢٨ – ولكن مع ذلك يرى الغزالي للعزلة ست فوائد خلاصتها : التفرغ للعبادة اذ قال الله تعالى « وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون » ، ويدخل فيها الفكر والاستئناس بمناجاته والاشتغال باكتشاف أسراره تعالى في أمر الدنيا والاخرة وملكوت السموات والارض) والتخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الانسان لها غالبا ، والخلاص من شر الناس وأن ينقطع طمعهم عنك (اذ رضى الناس غاية لاتدرك ، ومن عمم الناس كلهم بالحرمان

رضـوا عنه كلهم ولو خصص استوحشوا) ؛ وينقطع طمعك عنهم ، والخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى وأخلاقهم (اذ يسمى جالينوس النظر اليهم حمى الروح ، والانسان مهما تأذى برؤية ثقيل لم يامن أن يغتابه) .

١٢٩ — ولـكن الغزالى مع هذا يقول أن «الحـكم على العزلة مطلقا بالتفضيل نفيا واثباتا خطأ ، بل ينبغى أن ينظر الى الشخص وحاله والى الخليط وحاله والى الباعث على مخالطته والى الفائت بسبب مخالطته ، ويقاس الفائت بالحاصل ، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الافضل ، ولذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزله » .

١٣٠ — آفات اللسان : وأكثر مايسىء المعاشرة مايسميه الغزالى آفات اللسان ، وهى فيما بين الناس :

(١) المراء والجـدال :

وحـد المراء هو كل طعن فى كلام الغير (لتحقيره واظهار الـكياسة) باظهار خلل فيه اما فى اللفظ أو فى المعنى أو فى قصد المتكلم (وتركه يكون بترك الانـكار والاعتراض ، والتصديق بكل كلام سمعته ان كان حقا والسكوت عنه ان

كان كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين) . والجدال عبارة عن أمر يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها ، والخصومة لجاج مذموم فى الكلام (بالخصام ـ ابتداء أو اعتراضا ـ بالباطل أو بغير علم) ليستوفى به مال أو حق مقصود (ولكن لايحرم على المظلوم أن ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف ومن غير قصد عناد وايذاء ، والاولى تركه ، لأن ضبط اللسان فى الخصومة على حد الاعتدال متعذر وهى توغر الصدر) .

(٢) الفحش والسب وبذاءة اللسان واللعن : وهو منهى عنه إذ الفحش هو التعبير عن الامور المستقبحة (لاسيما فى ألفاظ الوقاع ومايتعلق به) بالعبارات الصريحة (مع أنه يمكن أن يكنى عليها ويدل عليها بالرموز) . والشتم والتعيير هو ذكر عبارات يستقبح ذكرها . واللعن هو الطرد والابعاد من الله تعالى (وهو لايجوز إلا مع الاجناس المعروفين بأوصافهم المبعدة منه ـ كالظالمين والكافرين والفاسقين لعنة الله عليهم — دون الاشخاص المعينين) ويقرب من اللعن الدعاء على الانسان

(حتى الظالم) بالشر .
(٣) المزاح : والنهى عنه الافراط فيه (لانه يورث كثرة الضحك التي تميت القلب وتورث الضغينة فى بعض الاحوال وتسقط المهابة والوقار) ، وقد كان النبي الكريم يمزح ولا يقول إلا حقا ، وكان فى مزاحه يتبسم فتنكشف فيه سنه ولا يسمع له صوت . أما الاستهزاء وهى الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه (بالمحاكاة فى الفعل والقول أو بالاشارة والايماء) فحرام مهما كانت مؤذية ، وأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح أن يسخر به فالسخرية فى حقه من جملة المزاح .
(٤) افشاء السر : وهو حرام اذا كان فيه اضرار (بالمعارف والاصدقاء) ولؤم إن لم يكن فيه اضرار .
(٥) الوعد الكاذب : ومن وعد وهو على عزم الخلف ، أو ترك الوفاء من غير عذر (لضرورة حاجزة) فهو منافق (فان عزم على الوفاء فعن له عــذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا) .

(٦) الكذب فى القول

واليمين : وبه يعتقد المخبر الشيء على خلاف ماهو عليه فيكون جاهلا وقد يتعلق به ضرر غيره . ويرى الغزالى أن « الكلام وسيلة للمقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل اليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام ، وان أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح ان كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب ان كان المقصود واجبا » .

فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما وعرضه ودم أخيه (كأن كان قد اختفى من ظالم وفى الصدق سفك دمه) وسره بلسانه وان كان كاذبا ، وان يصلح بين اثنين وبين الضرات من نسائه بان يظهر لكل واحدة انها أحب اليه ، وان كانت امرأته لاتطاوعه الا بوعد لايقدر عليه فيعدها فى الحال تطييبا لقلبها أو يعتذر الى انسان وكان لايطيب قلبه الا بانكار ذنب وزيادة تودد .

ولكن الحد فيه أن الكذب محذور « فاذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشد وقعا فى الشرع من الكذب فله الكذب ، وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما

وعند ذلك الميل الى الصدق أولى لان الكذب يباح لضرورة ؛ فان شك فى كون الحاجة مهمة فالاصل التحريم فيرجع اليه » . واذا اضطر الانسان الى الكذب فالتعريض أهون (ومثاله اذا طلبك من تكره أن تخرج اليه وأنت فى الدار ؛ فقلت للخادم قل له اطلبه فى مكان كذا ، اما اذا قلت ليس ههنا فكذب) . والمعاريض تباح بغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم لايدخل الجنة عجوز ؛ وأما الكذب الصريح (كتغرير شخص بان أمرأة قد رغبت فى تزويجه) فان كان فيه ايذاء قلب فهو حرام ، وان لم يكن الا لمطايبة فينقص من درجة ايمانه . ومن الكذب الذى لايوجب الفسق ماجرت به العادة فى المبالغة (كقوله طلبتك مائة مرة) فان لم يكن طلبه الا مرة واحده كان كاذبا ، وان كان طلبه مرات لايعتاد مثلها فى الكثرة لايأثم وان لم تبلغ مائة . ومما يعتاد الكذب فيه أن يقال كل الطعام فيقول لااشتهيه وهو حرام ان لم يكن فيه غرض صحيح (٧) الغيبة : وهى أن تذكر أخاك بما يكرهه سواء ذكرته بنقص فى

بدنه أو نسبه أو خلقه أو فعـله أو قوله أو دينه أودنياه ، وهى حرام لان فيها تفهيم الغير نقصان شخص معين ـ حى أو ميت ـــ فالتعريض به كالتصريح والفعل فيـه كالقول والاشارة والايمـاء والغمز والـكتابة والحركة . وكذلك يحرم سوء الظن (أى عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ، أما الخواطر والشك وحديث النفس فيعفى عنها) لان أسرار القلوب لايعلمها إلا الله ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوء إلا اذا انكشف لك بعيـان (تشاهده بعينك أو تسمعه بأذنك) لايقبل التأويل ، وامارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب عما كان فيفر عنه نفورا ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقـده وا كرامه والاغتمام بسببه (لذلك اذا خطر لك خاطر سوء على أخيك فينبغى أن تزيد فى مراعاته تكذيبا للشيطان واغاظة له) ، وأما اذا أخـــبرك عدل فلا تصدقه ولاتكذبه (كأنه لم ينكشف لك شىء) ، وينبغى أن تبحث هل بينهما عـداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه وكذلك ان كان من عاداته ذكر مساوى النـاس

(لأنه فى الحقيقة ليس بعدل) . ومن ثمرات سوء الظن التجسس (للتحقيق) .

والمرخص فى ذكر مساوى الغير أغراض صحيحة فى الشرع لايمكن التوصل اليها إلا به وهى ستة أمور : التظلم والاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى الى منهج الصلاح والاستفتاء (كأن يقول ظلمني أخي فكيف طريق فى الخلاص، والاسلم التعريض بأن يقول ماقولك فى رجل ظلمه أخوه) وتحذير مسلم من الشر (على قصد النصح للمستشير لاعلى قصد الوقيعة) وأن يكون الانسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه (كالأعرج) وأن يكون مجاهرا بالفسق (كالمخنث والمجاهر بشرب الخمر، وكان ممن يتظاهر به بحيث لايستنكف من أن يذكر ولايكره أن يذكر به، ولكن لو ذكرته بغير مايتظاهر به أثمت) .

ويجب على المغتاب أن يتوب ويندم على مافعله ليخرج به من حق الله ثم يستحل المغتاب (وهو حزين فى باطنه متأسف على فعله) ليحله فيخرج من مظلمته، وسبيله أن يبالغ فى

الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه (وإلا كان اعتذاره حسنة محسوبة له) . (٨) النميمة : وهي افشاء ستر الغير عما يكره كشفه سواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالايماء ، وسواء كان المنقول من الاعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيبا ونقصا في المنقول عنه أولم يكن وسواء كرهه المنقول عنه أوالمنقول اليه أو كرهه ثالث (فكل مارآه الانسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه الا مافي حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية ، فمن رأى مثلا من يخفي مالا فذكره ، فان كان مال المخفي فهو نميمة ، وأما أن كان مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له) . واسم النميمة انما يطلق على الاكثر على من ينم قول الغير الى المقول فيه ، فان كان الى من يخاف جانبه فهي سعاية .

وكل من حملت اليه النميمة وقيل له أن فلانا قال فيك كذا أو فعل في حقك كذا أو هو يدبر في افساد أمرك أو في ممالاة عدوك أو تقبيح حالك أو مايجري مجراه ، فعليه ستة أمور : أن لا يصدقه وان ينهاه عن ذلك وينصحله ويقبح عليه فعله ، وان

يبغضه فى الله تعالى ، وأن لايظن بالغائب السوء ، وان لايحمله ما حكى له على التجسس ، وان لايرضى لنفسه مانهى النمام عنه ، ولايحكى نميمته .

ومذموم كلام ذى اللسانين الذى يتردد (نفاقا) بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه (أى يجرى مع كل ريح فهو على قول ابن مسعود امعة) فينقل كلام كل منهما الى الآخر ، أو يحسن لكل منهما ما هو عليه من المعاداة لصاحبه أو يعد كلا منهما بان ينصره ، أو يثنى على كل منهما فى معاداته وإذا خرج من عنده يذمه (ولكن قد يصادقهما صداقة ضعيفة ، ذلك أن يجامل كلا منهما صادقا وينبغى أن يسكت أو يثني على المحق من المتعاديين بين يدى عدوه) .

(٩) المدح : وهو منهى عنه فى بعض المواضع ، فالمادح قد يفرط فينتهى به الى الكذب ، وقد يكون به منافقا لانه بالمدح مظهر للحب وقد لايكون مضمرا له ولامعتقدا لجميع ما يقوله ، وقد يقول مالا يتحققه ولاسبيل له الى الاطلاع عليه ، وقد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز (اذ ينبغى أن يذم

ليغتم) ، ولذا يجب على الممدوح ان يظهر كراهة المدح لأنه يضره إذ يحدث فيه كبرا واعجابا ، ويفرح اذا اثني عليه بالخير ويرضى عن نفسه فلا يعمل ، فان سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا اليه .

١٣١ - الغضب : وكذلك يسيء المعاشرة مع الناس الكبر والغضب والحقد والحسد ، ويقول الغزالى فى الغضب ان الله خلق طبيعة الغضب من النار وغرزها فى الانسان ، فمهما صد عن غرض من أغراضه ، اشتعلت نار الغضب وثارت به ثورانا يغلى به دم القلب وينتشر فى العروق ويرتفع ألى أعالى البدن كما يرتفع النار ، فلذلك ينبسط الدم وينصب الى الوجه فيحمر اذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه فان صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى جوف القلب وصار حزنا ولذلك يصفر اللون ، وان كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب. ويقسم الغزالى الناس فى قوة الغضب على درجات ثلاث

(١) التفريط بفقد هذه القوة أو ضعفها : (وذلك مذموم) ؛ وثمرة هذه الحمية الضعيفة قلة الانفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة واحتمال الاذى من الاخساء وصغر النفس والقماءة والخور فى السكوت عند مشاهدة المنكرات والعجز عن رياضة النفس عند الميل الى الشهوات الخسيسة (اذلا تتم الرياضة الا بغضبه على نفسه عند ميلها اليها) . (٢) الافراط فى الغضب : وهو أن يغلب حتى يخرج عن طاعة العقل والدين ولا يبقى للمرء معه بصيرة و نظر وفكرة ولا اختيار ، وسبب غلبته أمور غريزية (بان يكون الانسان بفطرته مستعدا لسرعة الغضب لحرارة مزاج القلب) وأمور اعتيادية (بأن يخالط قوما يسمون طاعة الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة فيتشبه بهم فيقوى به الغضب ، وهذا جهل لانه مرض قلب ونقصان عقل وضعف نفس ، وآية ذلك أن المرأة والصبى والشيخ الضعيف وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضبا). ومهما اشتدت نار الغضب أعمت صاحبها وأصمته عن كل

موعظة (إذ ينطفىء نور العقل وينمحى فى الحال بدخان الغضب) . ومن آثار هـذا الغضب فى الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة فى الاطراف وخروج الافعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الاشداق وتحمر الاحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة وتقبح الصورة . وأما أثره فى اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذى يستحي منه ذو العقل ويستحي منه قائله عند فتور الغضب وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ . وأما أثره على الاعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة ، فان هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب عجز عن التشفى ، رجع الغضب على صاحبه فلطم نفسه ومزق ثوبه ويعدو عدو الواله المتحير وربما يسقط سريعا لا يطيق النهوض ، ويعتريه مثل الغشية فيضرب الجمادات والحيوانات ويشتمها ويخاطبها (كالمجانين) ، وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التى بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظا . وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد

openkanz.com

والحسد واضمار السوء والشماتة بالمساآت والحزن بالسرور والعزم على افشاء السر وهتك الستر والاستهزاء .

(٣) غضب محمود ينتظر اشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم ؛ وهو الوسط الحق بين الطرفين ، (فمن عجز عنه فليطلب القرب منه فليس كل من عجز عن الاتيان بالخير كله ينبغى أن يأتى بالشر كله ؛ ولكن بعض الشر أهون من بعض) .

والعنف والحدة نتيجة الغضب والفظاظة (وقد ينتج عن شدة الحرص) يضاده الرفق واللين ثمرة حسن الخلق ، ويقول الغزالى أن المحمود وسط بينهما ؛ الا ان الرفق مفيد فى اكثر الاحوال وأغلب الأمور ، والحاجة الى العنف قد تقع (نادرا) و « الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه ، فان كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله الى الرفق فان النجح معه فى الاكثر »

١٣٣ ـ القدر الذى يجوز التشفى به من الكلام : ويقول

openkangi.com

الغزالى ان كل ظلم صدر من شخص فلايجوز مقابلته بمثله (وقد نهى النبي الكريم عن مقابلة التعيير بمثله نهى تنزيه والأفضل تركه والعفو عنه لانه يجره الى ماوراءه ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه) والذى يرخص فيه أن تقول من أنت وهل أنت الا من بنى فلان ، ياأحمق ياجاهل (إذ مامن أحد إلا وفيه جهل وحمق) ، ياسيء الخلق ياصفيق الوجه ياثلابا للاعراض (وكان ذلك فيه) ، ولوكان فيك حياء لما تكلمت وما أحقرك فى عيني بما فعلت وأخزاك الله وانتقم منك ، فأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق .

والناس فى الغضب أربعة : فبعضهم سريع الغضب والرضى (وكذلك المؤمن) ، وبعضهم بطيء الوقود والخمود وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود وهو الأحمد مالم ينته الى فتور الحمية والغيرة ، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهذا هو شرهم (إذ يحقد على الدوام) .

١٣٣ — الكبرياء : ويقول الغزالى ان أسباب الكبر

الظاهر أربعة : العجب والحقد والحسد (وبها يكون التكبر عند الخلوة والاجتماع) والرياء (ولا يكون به التكبر الا وجود ثالث خيفة من أن يقول انه افضل منه ، ولو خلا معه بنفسه لكان لايتكبر عليه) . والتكبر يظهر فى شمائل الرجل كصعر فى وجهه ونظره شزرا واطراقه رأسه وجلوسه متربعا أو متكئا ، وفى أقواله حتى فى صوته ونغمته وصيغته فى الايراد وفى مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته وفى تعاطيه لافعاله وفى سائر تقلباته فى أحواله وأقواله وأعماله : فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له ، وأن لايمشى الا ومعه غيره يمشى خلفه ، وأن لايزور غيره ، وأن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه الا أن يجلس بين يديه ؛ وأن يتوقى من مجالسة المرضى ، وأن لايأخذ متاعه يحمله الى بيته أو يتعاطى بيده شغلا فيه ، وأن يطلب التجمل اذا رآه الناس ولايبالى اذا انفرد بنفسه كيف كان (والمحبوب الوسط من اللباس للحديث القائل « ان الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده » ؛ فقد يكون لبس الثوب الجيد الجميل ليس للكبر بل لميله الى النظافة أو لحبه للجمال اذ علامة طالب الجمال أن يحب الجمال فى كل شىء ولو فى خلوته) .

١٣٤ — ويقول الغزالى أن ازالة الكبر فرض عين ، ويزول بالمعالجة بأمرين (١) استئصال أصله : وعلاجه مجموع من علمى (بأن يعرف نفسه وربه وانه لاتليق العظمة والكبرياء الا به تعالى) وعملى (بان تكمل المعرفة بالعمل وتجرب فى أفعال المتواضعين فى مواقع هيجان الكبر من النفس ، وبيانه أن يمتحن النفس بامتحانات هى أدلة على استخراج مافى الباطن) فان من لايعرف الشر لايتقيه ومن لايدرك المرض لايداويه (٢) دفع العارض منه بالاسباب الخاصة التى بها يتكبر الانسان على غيره ، فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداوقلبه بمعرفة أمرين : أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره ؛ وان يعرف أن أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل . ودواء التكبر بالجمال أن ينظر الى باطنه (اذ الرجيع فى امعائه والبول فى مثانته والمخاط فى أنفه والبزاق فى فيه والوسخ فى اذنيه والدم فى عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت أبطه ، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين ، ويتردد كل يوم الى

الخـــلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه مالو رآه بعينه لاستقذره فضلا عن أن يمسه أو يشمه ، هذا فى حال توسطه. وفى أول أمره خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القذر ، ولو ترك نفسه يوما لم يتعهدها بالتنظيف والغسل ، لثارت منه الانتان . هذا على أن قبح القبيح لم يكن اليه فينفيه ولا كان جمال الجميل اليه حتى يحمد عليه ، وكيف ولا بقاء له بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض او جدرى او قرحة او سبب من الاسباب) فاذا كان التكبر بالقوة فيمنعه من ذلك ان يعلم ماسلط عليه من العلل والامراض (ولو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه ، وتقتله بقة تدخل فى أنفه او نملة تدخل فى اذنه ، وتعجزه شوكة ، وحمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر فى مدة)، والتكبر بالغني وكثرة المال والاتباع والانصار وبولاية السلاطين والتمكن من جهتهم ، يزول بمعرفة ان هذه الاشياء قد تزول . والتكبر بالعلم يدفع بمعرفة امرين ان حجة الله على العالم آكد لانه لم يقض حق نعمة الله عليه فى العلم

(وقد مثله الله بالحمار يحمل اسفارا وبالكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث) وان يعرف أنه اذا تكبر صار ممقوتا بغيضا عند الله . والتكبر بالورع والعبادة سبيل دوائه أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد (فلا ينبغي أن يتكبر على العالم ولو كان فاجرا غير عامل بعلمه لان الحسنات — والعلم منها — يذهبن السيئات ، ولا على المستور فلعله أقل منه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله ، ولا على المكشوف حاله لأن ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة فى صفات الله تعالى وتخيل الخطأ فى ذلك شديد عندالله) .

١٣٥ — الحقد ونتائجه : ويقول الغزالى ان الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال ، رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وان يدوم ذلك ويبقى ، والحقد يثمر بثمانية أمور : الحسد (وهو أن تتمنى زوال النعمة عنه وهذا من فعل المنافقين) وان تشمت بما اصابه من البلاء ، وان تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وان

طلبك واقبل عليك، وان تعرض عنه استصغارا له (وهو دونه)، وان تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سر وهتك ستر وغيره وان تحاكيه سخرية منه، وايذاؤه بالضرب وبما يؤلم بدنه، وان تمنعه حقه من قضاء دين اوصلة رحم اورد مظلمة، وكل ذلك حرام. واقل درجات الحقد ان تستثقله فى الباطن ولا ينتهى قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له او بترك الدعاء له والثناء عليه والتحريض على بره ومواساته، فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين ويحول بينك وبين ثواب جزيل وان كان لا يعرضك لعقاب الله، والاولى ان يبقى على ما كان عليه، فان امكنه ان يزيد فى الاحسان مجاهدة للنفس وارغاما للشيطان فذلك مقام الصديقين. فللمحقود ثلاثة احوال عند القدرة: العدل وهو ان يستوفى حقه الذى يستحقه من غير زيادة ونقصان، او الفضل وهو ان يحسن اليه بالعفو والصلة، او الجور وهو ان يظلمه بما لا يستحقه.

١٣٦ — الحسد ومراتبه: ويقول الغزالى أنه اذا أنعم الله على أخيك بنعمة (كدار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة) فلك فيها حالتان: احداهما أن

تكره تلك النعمة وتحب زوالها (وهذه الحالة تسمى حسدا وهو حرام الا نعمة أصابها فاجر وهو يستعين بها على الفساد والايذاء)، والثانية أن لاتحب زوالها ولاتكره وجودها ودوامها ولكن تشتهى لنفسك مثلها (وهذه تسمى غبطة وقد تختص باسم المنافسة وهى محمودة وتكون واجبة ان كانت النعمة دينية كالصلاة، ومندوبا اليها ان كانت النعمة من الفضائل كالصدقات، ومباحة ان كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح، وهى وان كانت تنقص من الفضائل ولكن لاتوجب العصيان).

فمراتب الحسد كما يقول الغزالى أربع: أن يحب زوال النعمة عنه وان كان ذلك لاينتقل اليه (وهذا غاية الخبث) أو أن يحب زوال النعمة اليه لرغبته فى تلك النعمة (والمذموم تمنيه عين ذلك لامثله)، أو أن يشتهى مثلها، فان عجز أحب زوالها كى لايظهر التفاوت بينهما (وهذه فيها مذموم وغير مذموم)، أو ان يشتهى لنفسه مثلها، فان لم تحصل فلا يحب زوالها عنه (وهذا معفو عنه ان كان فى الدنيا

ومندوب اليه ان كان فى الدين) .

١٣٧ - ويقول الغزالى ان أسباب الحسد سبعة

(١) العداوة والبغضاء :

وهذا أشدها (إذ ربما يفضى الى التنازع والتقاتل واستغراق العمر فى ازالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجرى مجراه) فان من آذاه شخص بسبب من الاسباب وخالفه فى غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ فى نفسه الحقد ، فان عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه (وينتقم) أحب أن يتشفى منه الزمان (بالبلايا وزوال النعم) ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى ، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه بل أنعم عليه ، وغاية التقى أن لا يبغى وأن يكره ذلك من نفسه .

(٢) التعزز : وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره ، فاذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علما أو مالا خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه .

(٣) الكبر : وهو أن يكون فى طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة فى أغراضه ؛ فاذا نال نعمة خاف أن لايحتمل تكبره ويترفع عن متابعته أو ربما يتشوف الى مساواته أو الى أن يرتفع عليه . (٤) التعجب كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة اذ قالوا « ما أنتم إلا بشر مثلنا » فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعا أن يفضل عليهم من هو مثلهم فى الخلقة وقالوا متعجبين « أبعث الله بشرا رسولا ؟ ! » . (٥) الخوف من فوت المقاصد ، وذلك يختص بمزاحمتين على مقصود واحد (كتحاسد خواص الملك فى نيل المنزلة من قلبه للتوصل الى المال والجاه) . (٦) حب الرياسة وطلب الجاه بنفسه والتفرد (فالرجل الذى يغلب عليه حب الثناء ويستفزه الفرح بما يمدح به من أنه لا نظير له فى فنه ، يحب موت من يشاركه فى المنزلة ، أو زوال النعمة التى بها يشاركه فيها) . (٧) خبث النفس وشحها

بالخير لعباد الله تعالى (فيفرح صاحبها باضطراب أمور الناس وادبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم)؛ وهذا خبث فى الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر ازالته.

١٣٨ — وقد يجتمع بعض هذه الاسباب او اكثرها او جميعها فى شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ويقوى قوة لا يقدر معها على الاخفاء والمجاملة فتظهر العداوة بالمكاشفة، ويقول الغزالى ان الحسد انما يكثر بين قوم تكثر بينهم هذه الاسباب، ويقوى بين قوم تجتمع جملة منها فيهم وتتظاهر، وهى تكثر بين اقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات ويتواردون على الاغراض، اذ لا رابطة بين شخصين فى بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدة وكذلك فى محلتين، فاذا تجاورا فى مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا (وتزاحما) على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما فيثور من التناقض التنافر والتباغض ومنه بقية أسباب الحسد، ولذلك ترى الاسكاف مثلا يحسد الاسكاف ولا يحسد البزاز الا بسبب آخر سوى الاجتماع فى الحرفة ويحسد

لرجل أخاه وابن عمه اكثر مما يحسد الاجانب ، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا (ولذلك لايكون بين علمـــاء الدين محاسدة لان مقصدهم وغرضهم معرفة الله تعالى والمنزلة عنده - واجلها لذة لقـائه - وهذه كلها لاضيق فيهـا ولاممانعة ولا مزاحمة ، فاذا قصد العلماء - اوالطلبة - بالعلم المال والجاه تحاسدوا لان المـال اعيان واجسام اذا وقعت فى يد واحد خلت عنهـا يد الآخر ، ومعنى الجاه ملك القـلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر ، بينما العلم فى قلب العالم مستقر ويحل فى قلب غيره من غير ان يرتحل من قلبه ، والعلم لانهاية له ولايتصور استيعابه)

آداب الألفة والصحبة : ويقتضى الـكلام عن الألفـة مع الناس الـكلام عن معاملة عمومهم وتوادده لمعارفه منهم وحقوق صحبه وزوجه ، وقد تكلم الغزالى عنها فى مناسبات مختلفة نجمعها و نجملها فيما يلى :

١٣٩ - حقوق الناس عموما : ويقول الغزالى « ان حقوق المسلم هى : أن تسلم عليه اذا لقيته ، وتجيبه اذا دعاك ، وتشمته إذا

عطس وتعوده اذا مرض، وتشهد جنازته اذا مات، وتبر قسمه اذا أقسم عليك ؛ وتنصح له اذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب اذا غاب عنك، وتحب له ماتحب لنفسك، وتكره له ماتكره لنفسك ».

١٤٠ — واجبات الاكل فى اجتماع او مشاركة : ويقول الغزالى أنه يجب على الآكل فى مجتمع أو مع شركائه ، أن لايبتدىء بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل (الا أن يكون هو المقتدى به فحينئذ ينبغى أن لايطول عليهم الانتظار اذا اجتمعوا للأكل) وان لايسكتوا على الطعام ، (ولكن يتكلمون بالمعروف) وأن يرفق برفيقه فى القصعة فلا يقصد أن يأكل زيادة على مايأكله (فان قلل رفيقه نشطه ورغبه فى الاكل وقال له كل ولا يزيد فى قوله « كل » على ثلاث مرات) وان لايحوج رفيقه الى أن يقول له كل ، ولا ينبغى أن يدع شيئا مما يشتهيه لاجل نظر الغير له فان ذلك تصنع ، بل يجرى على المعتاد (ويحسن ان يقلل من اكله ايثارا لاخوانه أو يزيد فيه على نية المساعدة

وتحريك نشاطهم فى الاكل ، وان لاينظر الى اصحابه ولا يراقب أكلهم بل يغض بصره عنهم ويشتغل بنفسه ولا يمسك قبلهم (بل يمد اليد ويقبضها ويتناول قليلا قليلا الى أن يستوفوا ، فان كان قليل الأكل توقف فى الابتداء وقلل الأكل حتى اذا توسعوا فى الطعام أكل معهم أخيرا ، فان امتنع لسبب فليعتذر اليهم دفعا للخجلة عنهم) وأن لايفعل ما يستقذره غيره (فلا ينفض مثلا يده فى الصحاف ولايقدم اليها رأسه عند وضع اللقمة فى فيه ، ولا يغمس بقية اللقمة التى قطعها بسنه فى المرقة والخل ، ولايتكلم بما يذكر المستقذرات) .

١٤١ — آداب تقديم الطعام الى الزائرين : ويقول الغزالى أنه ليس من السنة أن يقصد قوما متربصا لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل فان ذلك من المفاجأة (ولكن يجب عليه اذا اتفق أن صادفهم على طعام أن لايأكل مالم يؤذن له ؛ فاذا قيل له كل نظر فان علم أنهم يقولونه على محبته اساعدتهم فليساعد ، وان كانوا يقولونه

حياء منه فينبغى أن يتعلل ؛ أما اذا كان جائعافقصد بعض اخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به) .

ويرى الغزالى أن آداب التقديم : ترك التكلف أولاوتقديم ماحضر (فان لم يحضره شىء ولم يملك فلا يستقرض لاجل ذلك فيشوش على نفسه ، وان حضره ماهومحتاج اليه لقوته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغى أن يقدم) وللزائر أن لايقترح ولا يتحكم بشىء بعينه فربمايشق على المزور احضاره (فان خيره أخوه بين طعامين فليتخير أيسرهما عليه) وان يشتهى المزور أخاه ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل مايقترح ، وأن لايقول له هل اقدم لك طعاما بل ينبغى ان يقدم ان كان .

١٤٢ — آداب الضيافة : ويرى الغزالى ان مظان الآداب فيها ستة (١) الدعوة اذ ينبغى للداعى أن يعمد بدعوته الاتقياء دون الفساق ويقصد الفقراء دون الاغنياء على الخصوص ، وينبغى أن لا يهمل أقاربه فى ضيافة فان أهمالهم ايحاش وقطع رحم ، وكذلك يراعى الترتيب فى اصدقائه

ومعارفه فان في تخصيص البعض ايحاشا لقلوب الباقين ، وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الاخوان (اتباعا للسنة) ، وينبغي ان لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الاجابة واذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب ، وينبغي أن لا يدعو الا من يحب اجابته

(٢) واما الاجابة فسنة مؤكدة ولها خمسة آداب : ان لا يميز الغني بالاجابة من الفقير ، ولا ينبغي ان يمتنع عن الاجابة لبعد المسافة (او لفقر الداعي او لكونه صائما) بل يحضر الا ان تحقق انه متكلف فليتعلل ، وان يمتنع من الاجابة ان كان الطعام طعام شبهة او كان يقام في الموضع منكر كالتشاغل بنوع من اللهو وكذلك اذا كان الداعي ظالما او مبتدعا او شريرا او فاسقا او متكلفا ، وان لا يقصد بالاجابة قضاء شهوة البطن بل ينوي بها اكرام اخيه المؤمن وادخال السرور على قلبه وينوي صيانة نفسه عن ان يساء به الظن في امتناعه ويطلق اللسان فيه بان يحمل على تكبر او سوء خلق

(٣) واما الحضور فادبه ان يدخل

الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الاماكن بل يتواضع
ولايطول الانتظار عليهم ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل
تمام الاستعداد ؛ ولايضيق المكان على الحاضرين بل ان
اشار اليه صاحب المكان بموضع لايخالفه البتة ، وان اشار
اليه بعض الضيفان بالارتفاع اكراما فليتواضع ، ولاينبغى
ان يجلس فى مقابلة باب الحجرة الذى للنساء وسترهم ، ولا
يكثر النظر (كالشره) الى الموضع الذى يخرج منه الطعام ،
ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه اذا جلس ، واذا
دخل ضيف للبيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول
القبلة وبيت الماء وموضع الوضوء .

(٤) واما احضار الطعام ، فله آداب خمسة :

تعجيل الطعام فذلك من اكرام الضيف ، وترتيب الاطعمة
(بتقديم الفاكهة اولا ان كانت فاللحم والثريد فالحلاوة بعده
يتخللها شرب الماء البارد) ، وان يقدم من الالوان الطفها حتى
يستوفى منها من يريد ، ولا يكثر الاكل بعده ، وان لا يبادر
الى رفع الالوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الايدى

عنها ، فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه ، ومن هذا الفن أن لايرفع صاحب المائدة يده قبل القوم بل ينبغى أن يكون آخرهم أكلا ، وأن يقدم من الطعام قدر الكفاية ؛ وينبغى أن يعزل أولا نصيب أهل البيت حتى لاتكون أعينهم طامحة الى رجوع شىء منه فلعله لايرجع فتضيق صدورهم وتنطلق فى الضيفان ألسنتهم ، ومابقى من الأطعمة فليس للضيفان أخذه .

(ه) فأما الانصراف فله ثلاثة آداب : أن يخرج مع الضيف الى باب الدار وهو سنة ، وتمام الاكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة ، وأن ينصرف الضيف طيب النفس وان جرى فى حقه تقصير ، وأن لايخرج إلا برضى صاحب المنزل واذنه ويراعى قلبه فى قدر الاقامة ، واذا نزل ضيفا فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرم به ويحتاج الى اخراجه .

١٤٣ — آداب المعاشرة الزوجية : ويقول الغزالى ان على الزوج مراعاة الاعتدال والأدب فى أمور نجملها

فيما يلى : (١) الوليمة (وهى مستحبة)
وحسن الخلق معها واحتمال الأذى منها ترحما عليها لقصور عقلها والحلم عند طيشها وغضبها (لا كف الأذى عنها فحسب) ، وأن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة فهى التى تطيب قلوب النساء ، وأن لا يتبسط فى الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها الى حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيبته عندها ، بل يراعى الاعتدال فيه ، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكرا ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة بل مهما رأى مايخالف الشرع والمروأة تنمر وامتعض . ويجب عليه أن يعتدل فى الغيرة وهو أن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التى تخشى غوائلها ولا يبالغ فى اساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء ، وأما الغيرة فى محلها فلابد منها وهى محمودة ، والطريق المغني عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال وهى لا تخرج الى الاسواق . ويجب أن يعتدل فى النفقة فلا ينبغى أن يقتر

عليها فى الانفاق ولا ينبغى أن يسرف بل يقتصد ، ولا ينبغى أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلا يطعمهم منـه فان ذلك مما يوغر الصدور ، فان كان مزمعا على ذلك فليأكله خفية بحيث لايعرف أهله ، واذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته . (٢) أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه مايحترز به الاحتراز الواجب ويعلم زوجته أحكام الصلاة ومايقضى منها فى الحيض ومالايقضى ، وأن يعرف آداب الجماع ومنها أن لايقارب الرجل زوجته فيصيبها قبل أن يحادثها ويؤانسها ويقبلها ويضاجعها فيقضى حاجته منها قبل أن تقضى حاجتها منـه (ويكره العزل لانه دفع لوجود الولد) ، وأن يعرف آداب الولادة وأهمها أن لايكثر فرحه بالذكر وحزنه بالانثى (فانه لايدرى الخيرة له فى أيهما ، فكم من صاحب ابن يتمنى أن لايكون له أو يتمنى أن يكون بنتا ، بل السلامة منهن أكثر والصواب فيهن اجزل) ، وان يؤذن فى اذن الولد ، وان يسميه اسما حسنا (فذلك من حق الولد) . واذا كان له نسوة فينبغى أن يعدل بينهن فى العطاء والمبيت ،

وأما فى الحب والوقاع فذلك لايدخـــل تحت الاختيـار

(٣) ومهما وقع بينهما خصام ؛ (من جانبهما أو من الرجل) ولم يلتئم أمرهما فلا بد من حكمين أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا أمرهما ويصلحا بينهما « ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما » ، وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصـة فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهرا (كما له حملها على الصلاة قهرا) ؛ ولـكن ينبغى أن يتدرج فى تأديبها وهو أن يقدم أولا الوعظ والتحذير والتخويف؛ فان لم ينجح ولاها ظهره فى المضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو فى البيت معها من ليلة الى ثلاث ليال ، فان لم ينجح ذلك فيها ضربها ضربا مبرحا بحيث يؤلمها ولايكسر لهـا عظما ولايدمى لهـا جسما ولايضرب وجهها . والطلاق مباح ولـكنه أبغـض المباحات الى الله تعالى ، وانما يكون مباحا اذا لم يكن فيـه إيذاء بالباطل ؛ ومهما طلقها فقد آذاها؛ ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه امتثالا لامر الله تعالى « فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » أى لاتطلبوا

حيلة للفراق ، فان سألت الطلاق بغير ما بأس فهى آثمة ؛ وليراع الزوج فى الطلاق أربعة أمور: أن يطلقها فى طهر لم يجامعها فيه (لان الطلاق فى الحيض أو الطهر الذى جامع فيه حرام وان كان واقعا لما فيه من تطويل العدة عليها ، فان فعل ذلك فليراجعها) وان يقتصر على طلقة واحدة (لان الطلقة الواحدة بعد العدة تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة ان ندم فى العدة ، وتجديد النكاح أن اراد بعد العدة) وان يتلطف فى التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف ، وتطييب قلبها بهدية على سبيل الامتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق (اذ قال تعالى « ومتعوهن ») وأن لا يفشى سرها لا فى الطلاق ولا عند النكاح .

ويقول الغزالى ان حقوق الزوج عليها: طاعة الزوج مطلقا فى كل ما طلب فى نفسها مما لا معصية فيه (ومنها ان لا تاحف به فيقلاها ولا تباعد عنه فينساها ، وان تقرب منه ان دنا منها، وتبعد عنه ان نأى عنها، وتحفظ أنفه وسمعه وعينه ، فلا يشم منها الا طيبا ولا يسمع الا حسنا ولا ينظر الا جميلا كما قالت اسماء خارجة الفزارى): واهم

حقوق الزوج على زوجته الصيانة والستر وترك المطالبة بما وراء الحاجة والتعفف عن كسبه اذا كان حراما . ومن الواجبات عليها ان تلازم الصلاح والانقباض فى غيبة زوجها والرجوع الى اللعب والانبساط واسباب اللذة فى حضوره ، ولا ينبغى ان تؤذيه بحال ، بل يجب عليها ان لا تفرط فى ماله بل تحفظه عليه ، ومن آدابها ان تقوم بكل خدمة (التدبير المنزلى) فى الدار تقدر عليها .

١٤٤ – وباتباع الشرع الشريف فى اباحته للخاطب رؤية وجه خطيبته وكفيها (على أن يكون معهما محرم كأبيها أو أخيها) ، وفيما أوجبه من رضى الطرفين الصحيح ، وبما ذكرناه عن الغزالى فى العشرة الزوجية (وفى ص ١٧٣ وما بعدها) ، نرى أن الأخذ برأيه فيها يحقق سعادة الاسرة التى ينادى المنادون بها ولا يجدون لندائهم سميعا ، هذه السعادة الحقة التى يشعر بها كل من عمل بما يراه الغزالى فى الاسرة ، تحفظ الزوج عن أن يعبث والزوجة عن أن تخادن ، يحفظ الحياة الزوجية عن الخيانة الزوجية من الرجل (ليلهو) أو من المرأة (لتعزى نفسها) ، ويخرج الاسرة عن الجحيم

الذى هى فيه ، ويجعل الأب والأم قدوة برة صالحة للفتى والفتاة ، فلا يرى الفتى فى منزل أبيه من العبث أو أنواع العراك أو المصادمة أو سوء التصرف مايبغض له الحياة أو يحبب له الرذيلة اويعطيه فكرة خاطئة عن الحياة الزوجية ، ولا ترى الفتاة إلا مثلا عاليا للزوجة الصالحة والا مايرغبها فى حياة امها الطاهرة العفيفة والا مايبعدها عن التفكير فى ان تبحث عن اللذات الروحية فى غير منزل ابيها وامها وبين اخواتها واخوتها فيودى بها التفكير الى البحث عن اللذات المادية فتسقط وتهوى . وانك لتعرف كيف تهوى الفتاة إذ يغريها الفتى فيعجبها اغراؤه متغافلة عن كون الاغراء اثما إذ تهاجم عوامل غرامها حصون رشادها فتدكها ، ويبدأ حبها له بطهارة قلب وحسن سجية ، إذ يبسم لها فتفتك بها عيناه الجميلتان (كما تراهما) حين يبتسم فيشغفها حبا ، ويبعثها حبها الشديد له الى ان تراه ويراها خلسة ، فالى ان يتقابلا فى السينما خفية . . ، الى ان تخسر كل شىء لارضائه اذ تعده فاتح حصن قلبها ، وهى فى بدء أمرها لاتعرف انه

يجب ان تصون عفتها اذ تكون ظاهرة الحب لاتعرف منه غير ابتسامة عذبة (فى نظرها مرة فى حقيقتها) من حبيبها لاتتعدى التعبير عن مكنونات فؤاديهما . ويبدأ حبها اشتهاء رؤيته (للتمتع بهداياه وحديث ملقه) ثم يتبعه رغبة منه فى لمس يدها وضغطه عليها ثم رغبة فى ان يضمها اليه ... ثم لاتبتعد ولاتعارض على ضمه اياها ، فيندفع نفسه المتقطع من اندفاع شهوته الآثمة التى لم تكن تعرفها ، وتلهب وجنتاها بنار حبه المصطنع ، فيعلو صدرها ويهبط .. يطوقها بذراعه ... ضم .. قبلة .. ثم لاتدرك مايحدث ، فتفيق وتحرم على نفسها لقاءه محاولة نسيانه ولكنها تضعف فترجع الى وجدها الاول بشدة أكثر من قبل .. ثم يتغلب عليها النذل فيسقطها فى الهاوية التى قدر لها !!

وأنك تعرف كيف يفسد الفتى باهمال والديه اذ يجتمع بوحش من وحوش الانس فيغريه ويتودد اليه ، واليوم يقدم له السجاير فيتعودها ، وغدا يقدم له كأس الخمر فيشربها وبين الكاس والطاس يفقد رشده وعقله ، فتزول منه عوامل

الحياء شيئاً فشيئاً الى أن تصبح الرذيلة فيه عادة لا يستطيع الاقلاع عنها ، وتؤدى به الخمر إلى أن يعبث بهذه ويتودد لتلك ويتزين لفلانة ويصحب علانة ويفتتك بمرجانة ، فيهمل دروسه ان كان تلميذا أو مصنعه أو متجره ، ويكون أحب شيء له فى الحياة أن يعبث وأحب وقت له وقت العبث ، فيضيع عليه الدين والدنيا ، وقد يكون لمغريه شعاع نور من ضمير أوله هو بصيص من ذكاء فيعمل ناجحا ولكن من زمرة الفاسدين المفسدين الضالين المضلين .

وأنت تعرف كيف يسيء الرجل فهم معنى الزواج فيخاله قاصرا على الصلات البهيمية ولا يفهمه الا متصلا بهذا المعنى ، فاذا توهم أن زوجته الحالية لا تشبعه من هذه الناحية أو شاقته نفسه لغيرها أو ماتت أو وجد مادعا للفراق بينهما ، دفن العاطفة الأبوية لأولاد القديمة مع أمهم ونأى بجانبه عنهم ، وجعل كل همه للزوجة الجديدة ولما يدعو لارضائها ، فيقسو على أولاده وبناته من القديمة ارضاء للجديدة ، وقد يقسو الى حد اهمالهم فيضيع مستقبل الابن

وتفسد البنت ؛ وقد يكون أرق قلبا من هذا فيكتفي بأن يهب كل أمواله للجديدة وأولادها .

فلو حسن فهم معنى الحياة الزوجية لكان البيت جنة ، ولتضامن الرجل والمرأة وتعاونا على تهذيب الفتى والفتاة ومراقبة أخلاقهما والعمل على ابعاد عوامل الفساد عنهما ، ولفهم الرجل أن مايراد من الزواج معنى أسمى مما يظن ؛ وان ثمرة زواجه الاول ليس عدد كذا من مرات الوقاع باشرها مع زوجته ، بل كم من البنات والبنين أثمر ، فيحافظ على هذه الثمرة لتينع وتزهر ، وليسقها ماء عطفه وحنانه وتعهده وتهذيبه ، وليرعها في حياته ويسعى في أن يترك لها ذخيرة مادية ومعنوية تعينها من بعده ؛ وان هذه الزوجة الجديدة لم يتزوجها الا لكى تزيد ثمره ، فاذا أحبت منه أن تكون فوق ثماره فلينبذها ويهجرها ، واذا أظهرت حب تمييز ثمرتها عن ثمار الأولى فليرد كيد أنانيتها في نحرها ، واذا عملت على أن يفقد ثماره عطفه وتعهده فليوقفها عند حدها وليفهما أن حبه لها انما ينميه عطفها على فلذات كبده ، لافرق

بين أحد منها . . . ولقد رأينا كيف سما الغزالى بالصلة الزوجية وأخرجها عن أن تكون مجرد تسليم جسم لجسم لارضاء شهوة بهيمية الى أن تكون صلة روحية قوامها الحب والعطف والتعاون على تربية الأولاد وتهذيبهم ، وكيف أخرج الغني عن أن يكون غني المال الى غني النفس ، وعرفنا معنى رعاية الجمال وأن الجمال الكامل جمال الأخلاق والمعانى فالصور .

١٤٥ — حقوق الأخوة والصحبة : والاخوة عقد ينزل منزلة القرابة ، فاذا انعقدت (هذه الرابطة الروحية بين شخصين) تأكد الحق ، ولذا يرى الغزالى للأخ حقوقا عدة نجمعها ونجملها فيما يلى : (١) أن يساهم أخاه فى السراء والضراء : فيواسيه بماله ويعينه بالنفس فى الحاجات ويقوم بها قبل السؤال (أو على الأقل عند السؤال والقدرة مع إظهار الفرح) ويقدمها على الحاجات الخاصة (وأدنى مراتب الاخوة أن يقوم بها من فضلة ماله ، وثانيها أن ينزله منزلة نفسه ويرضى بمشاركته إياه في ماله حتى يسمح بمشاطرته فيه ، وأعلاها

أن يؤثره على نفسه (٢) أن يقيد بحقوقه جميع جوارحه : فينظر اليه نظر مودة يعرفها منه وينظر الى محاسنه ويتعامى عن عيوبه ولا يصرف بصره عنه فى وقت اقباله ، ولا يرفع صوته عليه ولا يخاطبه إلا بما يفقه ، وأن يسكت عن ذكر عيوبه ومساوى أهله وأحبابه وولده فى غيبته (لانها غيبة) وحضرته (لانه لن يجد منزها عن كل عيب) ، بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه : ويجب أن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه (فان الذى سبك من بلغك) وعن التجسس عن أحواله ، وإذا رآه فى طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأل عنه (فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج الى أن يكذب فيه) ، ولا يبث اسراره الى غيره البتة ولا يفشى شيئا منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، ويجب أن يسمع كلامه متلذذا بسماعه ومصدقا به ، وان لا يقبض عن معاونته فى كل مايتعاطى باليد ، وأن يتواضع له (ويغالى الغزالى ويقول بمشيه وراءه مشى الاتباع لامشى المتبوعين ولا يتقدمه إلا

بقدر مايقدمه ولايقرب منه الا بقدر مايقر به ويقوم له اذا أقبل ولايقعد الا بقعوده ، ولكنه قصر هذا الى حين الاتحاد وطى بساط التكلف) . وأقل درجات الاخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ؛ فيجب عليه أن لايسىء الظن به وان يخبره (تبعا للحديث الشريف) بحبه (لان القلوب تتجارى) ؛ ويتفقده فى أحواله التى يجب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض ان عرض واظهار شغل القلب بسببه واستبطاء العافية عنه ، وان يدعو له ويظهر بلسانه وأفعاله كراهة جملة أحواله التى يكرهها ، والسرور بالتى يسر بها ، وأن يدعوه بأحب اسمائه اليه ، ويثنى عليه بما يعرف من محاسن أحـواله عند من يؤثر هو الثناء عنده (وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع مايفرح به وذلك من غير كذب وافراط) ، وآكد من ذلك أن يبلغه ثناء من أثنى عليه مع اظهار الفرح ، وأن يشكره على صنيعه فى حقه بل على نيته وان لم يتم ذلك ، وأن يذب عنه فى غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض

لمرضه بكلام صريح أو تعريض . وأن يعلمه وينصحه وينبهه على عيوبه ويقبح القبيح فى عينه ويحسن الحسن (ولكن ينبغى أن يكون ذلك فى سر لا يطلع عليه أحد، فان علم أن النصح غير مؤثر فيه وأنه مضطر من طبعه الى الاصرار عليه فالسكوت عنه أولى ، وذهب أبو ذر الى الانقطاع ، وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا الى خلاف ذلك لان الله تعالى قال لنبيه فى عشيرته « فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون » ولم يقل انى برىء منكم). أما زلته فى حقه بما يوجب ايحاشه فلا خلاف فى ان الاولى الصفح والاحتمال ، فان كان بحيث يؤدى استمراره عليه الى القطيعة فالعتاب فى السر خير والتعريض به خير من التصريح والمكاتبة خير من المشافهة والاحتمال خير من الكل ، ويجب أن يقبل عذره مهما اعتذر اليه (كاذبا أو صادقا) وأن يحمل قوله وفعله فى حقه على وجه حسن . وقوام الاخوة الموافقة فى الكلام والفعل والوفاء والاخلاص ، ومعنى الوفاء الثبات على الحب وادامته الى الموت وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه وأقاربه

والمتعلقين به (ومراعاتهم وتفقدهم اوقع فى قلب الصديق من مراعاة الاخ نفسه؛ اذ لا يدل على قوة الشفقة والحب الا تعديهما من المحبوب الى كل مايتعلق به) ومن الوفاء أن لا يتغير حاله في التواضع مع اخيه وان ارتفع شأنه (إذ الترفع على الاخوان بما يتجدد من الاحوال لؤم) ؛ وأن يخالفه فيما يخالف الحق في امر يتعلق بالدين ، وان يكون شديد الجزع من المفارقة نفور الطبع عن اسبابها ، وان لا يسمع بلاغات الناس عليه وان لا يصادق عدو صديقه (٣) التخفيف وترك التكلف والتكليف : وذلك بان لا يكلف اخاه مايشق عليه بل يروح سره من مهماته وحاجاته ويرفهه عن ان يحمله شيئا من اعبائه ، فلا يستمد منه من جاه ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لاحواله والقيام بحقوقه ، بل لا يقصد بمحبته الا الله تعالى (فلا يجد فى صدره حاجة ـ الحسد والحقد ـ مما اوتى، واذا وجد فالانقطاع اولى) ، وتمام التخفيف بطى بساط التكلف (بان يكون له عنده مرحب وهو السعة فى القلب والمكان وله عنده اهل يأنس بهم بلاوحشة ، وسهولة في ذلك كله و

لا يشتد عليه شيء مما يريد، يشير لذلك قول الاعرابي لصاحبه (أهلا وسهلا ومرحبا)؛ ومن تتمة الانبساط وترك التكلف ان يشاور اخوانه في كل مايقصده ويقبل اشاراتهم، فقد قال تعالى «وشاورهم في الامر»؛ وينبغي ان لايخفي عنهم شيئا من اسراره.

١٤٦ — فالصديق روح أخيه، بعينه ينظر وباذنه يسمع وعن فكره ينطق ومنه يستملي، ان هجع بخياله يحلم وان انتبه به لاذ، اذا استغنى عنه لم يزده في المودة واذا احتاج اليه لم ينتقصه لايكافئ له، بل تحدث رؤيته ثقة به وتهدى اليه غيبته طمأنينة اليه؛ هو هو الا أنه بالشخص غيره، قد أحله حبة القلب من قلبه، وجرى مجرى الدم في عروقه؛ فأخلص له الثقة وصدق له المودة. هكذا فهم الغزالي الصداقة ولذا رأى مارأى للصديق من حقوق، ولكني بحثت عن الوفاء بحق واحد منها فلم أجده الا في القليل، ولذلك ناديت وأنادي بالحب الصامت وهو أن تحب من تحب من الناس ولا تتصل به، بل تعمل له مايعمل المحبون وتثنى عليه بمايثني المخلصون وتحمل له في قلبك أماني الصديقين . . . حتى اذا انتبه لك، لم تجعله ينتبه . . . وبذا يحرقك الشوق، وبذا تطهرك الآلام . . وبذا تكون وفيا لجميع الناس، صديقا لهم كلهم، وليس لك من بينهم أخ واحد يجوز أن تسميه صديقا بالمعنى الذي أراده الغزالي (صدوقا) ! ! . . . .

الباب الثالث

ما بينك وبين نفسك

= قصة النفس =

« لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء »

حديث شريف

obeikandl.com

١٤٧ - معنى حسن الخلق : الخلق كما يقول الغزالى عبارة عن « هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية . فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر عنها الافعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا » . فالغزالى يرى أن الخلق عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة ، وأنه كما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لايتم بحسن العينين دون الانف والفم والخد ، بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر (حسن الخلق بالفتح) : فكذلك فى الباطن أربعة أركان لابد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق (بالضم) فاذا استوت واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق (مطلقا اذا اعتدلت جميعها ، ومن اعتدل فيه بعضها دون بعض يكون حسن الخلق بالاضافة الى ذلك المعنى خاصة) وهذه الاركان هى : (١) قوة العلم : بأن تصير بحيث يسهل بها دَرك الفرق بين الصدق والكذب فى الاقوال

وبين الحق والباطل فى الاعتقادات وبين الجميل والقبيح فى الافعال الاختيارية (أى الحكمة اذ يحصل من اعتدالها حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأى واصابة الظن والتفطن لدقائق الاعمال وخفايا آفات النفوس ، ومن افراطها عند استعمالها فى الاغراض الفاسدة يصدر الخبث والمكر والخداع والدهاء والجريرة ، ومن تفريطها يصدر البله والغمارة أى قلة التجربة فى الأمور مع سلامة التخيل — والحمق بصحة المقصد وفساد سلوك الطريق — والجنون باختيار مالا ينبغى أن يختار) . (٢) قوة الغضب : بأن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة (أى الشجاعة بأن تكون قوة الغضب منقادة للعقل فتقدم لو كان عزما وتحجم لو كان حزما ، ويصدر منها الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها ، فان مالت للزيادة فهى تهور يصدر منه الصلح والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب ، وان مالت للضعف فهى جبن يصدر منه الجزع والمهانة والذلة

والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق والواجب) .

(٣) قوة الشهوة : بتأديبها بتأديب العقل والشرع (أى العفة ، ويصدر منها السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع ، وهى شره ان مالت للزيادة وجمود ان مالت للنقصان ، ويحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير - وهو أحمد من البخل - والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق - وهو أهون من التكبر - والحسد والشماتة والتذلل للاغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك) .

(٤) قوة العدل : وهو حالة وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها (وضدها الجور) .

١٤٨ - قبول الاخلاق للتغير : ويقول بعضهم ان الاخلاق (وهى الصورة الباطنة) لايتصور تغييرها ، كما أن الخلقة الظاهرة لايقدر على تغييرها (فالقصير مثلا لايقدر

أن يجعل نفسه طويلا) ، وانه محال قطع التفات القلب الى الحظوظ العاجلة ، ولكن الغزالى يستنكر هذا ويقول « لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسنوا اخلاقكم »، ويعزز استنكاره بامكان تغيير خلق البهيمة اذ يمكن نقل الفرس مثلا من الجماح الى السلاسة والانقياد (فما بالك بالانسان ؟!) . ولكى يوضح لنا رأيه يقسم الموجودات الى ماوقع الفراغ من وجوده وكماله (وهذا لا مدخل للآدمى فى اختياره فى أصله وتفصيله كأعضاء البدن) والى ماوجد وجودا ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد له شرط قد يرتبط باختيار العبد (فالنواة لا تصير نخلا مثلا الا بالتربية ، ولا تصير تفاحا أصلا) فكذلك الغضب والشهوة لا نقدر على قمعهما أصلا ، ولكن لو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه ، ولا يمارضنا فى هذا اختلاف الجبلات (اذ بعضها بطىء القبول وبعضها سريعه وسبب هذا قوة الغريزة فى أصل الجبلة وامتداده مدة الوجود

فان قوة الشهوة أصعب القوى واعصاها على التغيير لانها أقدم وجودا) ثم ان الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا ، والناس فيه على أربع مراتب (١) الانسان المغفل الجاهل الذى لايميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح ، بل بقى كما فطر عليه خاليا من جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته ايضا باتباع اللذات ، فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج الى معلم ومرشد والى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة ، فيحسن خلقه فى أقرب زمان (٢) جاهل ضال قد عرف القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح ، بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهوته واعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره فى عمله ، فأمره أصعب من الاول اذ عليه قلع مارسخ فى نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد ، وأن يغرس فى نفسه صفة الاعتياد للصلاح ، وهو بالجملة محل قابل للروضة أن انتهض لها بجد وحزم

(٣) ضال فاسق يعتقد فى الاخلاق القبيحة أنها

الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها ، فهذا تكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه الا على الندور

(٤) جاهل وضال وفاسق وشرير نشأ على الرأى الفاسد وتربى على العمل به فيرى الفضيلة فى كثرة الشر ويباهى به ويظن ان ذلك يرفع قدره وهذا هو أصعب المراتب.

ويرد الغزالى على قولهم أن الآدمى مادام حيا فلا ينقطع عنه الغضب والشهوة وحب الدنيا وسائر هذه الاخلاق ، ولذلك لا يمكن تغيير الاخلاق ، فقال « ان هذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات ، فان الشهوة خلقت لفائدة وهى ضرورية فى الجبلة فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه مايهلكه ولهلك ، ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذى يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال ، وليس المطلوب اماطة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذى هو وسط بين

الافراط والتفريط » .

١٤٩ — سبب حسن الخلق : ويرى الغزالى أن حسن الخلق يحصل على وجهين (١) جود الهى وكمال فطرى بحيث يخلق الانسان ويولد كامل العقل حسن الخلق (كسائر الانبياء) . ولا يبعد أن يكون فى الطبع والفطرة ماقد ينال بالاكتساب (فصدق اللهجة قد يكون طبيعيا وقد يحصل بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الاخلاق وربما يحصل بالتعلم) .

(٢) اكتساب هذه الاخلاق بالمجاهدة والرياضة بحمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب . ولن ترسخ الاخلاق الدينيه فى النفس مالم تتعود جميع العادات الحسنة ومالم تترك جميع الافعال السيئة ومالم تواظب عليها مواظبة من يشتاق الى الافعال الجميلة ويتنعم بها ويكره الافعال القبيحة ويتألم بها ، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ، ولاينال كمال السعادة به ، والمواظبة عليها بالمجاهدة خير بالاضافة الى تركها ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اعبدالله فى الرضى ، فان لم تستطع ففى الصبر على ماتكره خير كثير » .

ويقول الغزالى أن ميل النفس الى مقتضيات الشهوة غريب فى ذاته وعارض على طبعه (لان غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عزوجل) «فاذا كانت النفس بالعاده تستلذ الباطل وتميل اليه والى القبائح فكيف لاتستلذ الحق لو ردت اليه مدة والتزمت المواظبة عليه ؟ ! » . ويستنتج من هذا ان الاخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلف الافعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعا انتهاء ، ويقول « ان هذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح (النفس والبدن) ، فان كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لاتتحرك الا على وفقها لامحالة ، وكل فعل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب والأمر فيه دور » ، وضرب مثلا بمن أراد أن يصير الحذق فى الكتابة له صفة نفسية حتى يصير كاتبا بالطبع ، فيتكلف الكتابة بمواظبته مدة طويلة على محاكاة الخط الحسن بيده ، فيرتفع منه أثر الى القلب ثم ينخفض من القلب الى الجارحة فيكتب الخط الحسن بالطبع .

١٥٠ – ولما كان الاعتدال فى الاخلاق هو صحة النفس كما أن الاعتدال فى مزاج البدن هو صحة له : يقول الغزالى « ان مثال النفس فى علاجها بمحو الرذائل والاخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والاخلاق الجميلة اليها مثال البدن فى علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبه اليه : وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وانما تعترى المعدة المضرة بعوارض الاغذية والاهوية والاحوال : فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، فبالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل ، كما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا وانما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وانما تكمل بالتربية وتهذيب الاخلاق والتغذية بالعلم ، وكما أن البدن ان كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وان كان مريضا فشأنه جلب الصحة اليه ، فكذلك النفس منك ان كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة اليها واكتساب زيادة صفائها ، وان كانت عديمة الكمال والصفاء

فينبغى أن تسعى لجلب ذلك اليها ، وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لاتعالج الا بضدها فان كانت من حرارة فالبرودة وان كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخى ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا ، وكما أنه لابد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الابدان المريضة ، فكذلك لابد من احتمال مرض المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، وكما أن كل مبرد لايصلح لعلة سببها الحرارة إلا اذا كان على حد مخصوص ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ، فكذلك النقائص التى تعالج بها الأخلاق لابد لها من معيار ، وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى أن الطبيب لايعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فان كانت من حرارة فيعرف درجتها أهى ضعيفة أم قوية ، فاذا عرف ذلك التفت الى أحوال البدن وأحوال الزمان

وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ؛ فكذلك الذى يطب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص وفى طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم ؛ وكما أن طبيب الأجسام لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك طبيب النفوس لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم » . أى ان الغزالى يرى أن الطريق الكلى سلوك مسلك المضادة لكل ماتهواه النفس « وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هى المأوى » ، والاصل المهم فى المجاهدة الوفاء بالعزم ؛ فاذا عزم على ترك شهوة فينبغى أن يصبر ويستمر واذا نقض عزما فينبغى أن يلزم نفسه عقوبة عليه (لأنه ان عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت) .

١٥١ — **أمثلة لرياضة النفس** : ولقد ذكر الغزالى فى عدة مواضع أمثلة شتى للعلاج بالمضادة ، فيقول مثلا ان علة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة ، والمعرفة ترينا أنه لا محل

للعجب لان كل مايعجب به من فضل الله ، وانما هو (وهو من خلق الله واختراعه) محل لفيضان فضله تعالى وجوده، فالاولى أن يعجب بمن اليه الامر كله . ويقول ان رياضة الكبر بالتواضع فى غير مذلة ومن غير تخاسس (أى العدل باعطاء كل ذى حق حقه)، والسبيل فى اكتسابه أن يتواضع لقرينه (بالتنحى له عن المجلس وأن يغدو الى باب الدار خلفه) ولمن دونه كالسوق (بالقيام والبشر فى الكلام والرفق فى السؤال واجابة دعوته والسعى فى حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيرا منه فلا يحتقره ولا يستصغره) .

ويقول ان علاج الغيبة هو المعرفة بان ينظر الى السبب الباعث له عليها ، اذ علاج العلة بقطع سببها ، فاذا كان سببها أن يشفى الغيظ بذكر مساويه (أو الحقد اذا امتنع تشفى الغيظ) فعلاجه بان يقول أنه اذا أمضى غضبه عليه فلعل الله تعالى يمضى غضبه عليه (هو) بسبب الغيبة ، واذا كان سببها موافقة الرفقاء ومجاملتهم ومساعدتهم (بالتفكه بذكر الاعراض) فعلاجه بان يعلم ان الله تعالى يغضب عليه اذا

طلب سخطه في رضا المخلوقين ، واذا كان سببها انه استشعر من انسان انه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده : فعلاجه بان يعرف ان التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين . وهو بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا يدري أنه يتخلص من سخط الناس أم لا ، واذا كان سببها أنه نسب الى شيء فاراد أن يتبرأ منه فذكر الذي فعله أو ذكر غيره بانه كان مشاركا له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه من فعله (كقوله ان أكلت الحرام ففلان يأكله) فعلاجه هو معرفة ان هذا العذر جهل لانه يعتذر بالاقتداء بمن خالف أمر الله ولا يجوز الاقتداء به ، فاذا كان سببها ارادة التصنع والمباهاة برفع نفسه وتزكيتها بتنقيص غيره والقدح فيه : فعلاجه بان يعلم أنه بما ذكره به أبطل فضله عند الله . وهو من اعتقاد الناس فضله على خطر (إذ ربما نقص اعتقادهم فيه اذا عرفوه

بتلب الناس) فيكون قد باع اليقين بالوهم (على انه لو حصل له من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنه من الله شيئا) فاذا كان سببها حسده لمن يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد أن يسقط ماء وجهه عندهم حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه ، فعلاجه معرفة أنه جمع بين عذابين عذاب الحسد وعذاب الآخرة وربما يكون حسده وقدحه سبب انتشار فضل محسوده ، فاذا كان سببها اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة أو السخرية والاستهزاء ، فعلاجه بمعرفة أن قصده منه اخزاء غيره عند الناس باخزاء نفسه عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين ، فاذا كان سببها انبعاث داعية التعجب فى إنكار المنكر والخطأ فى الدين بقوله ما أعجب ما رأيت من فلان ، فعلاجه (وهو فى الخاصة) هو معرفة أنه أهلك نفسه ودينه بدين غيره أو بدنياه ، وهو مع ذلك لا يأمن أن يهتك الله ستره كما هتك بالعجب ستر أخيه ، فاذا كان سببها الرحمة (وهو فى الخاصة أيضا) باغتمامه

بسبب ما يبلى به بقوله مسكين فلان قدغمني أمره وما ابتلى به : فعلاجه فى معرفة انه ينقل اليه من حسناته ما هو أكثر من رحمته : فاذا كان سببها الغضب لله تعالى (وهو فى الخاصة) على منكر قارفه انسان اذا رآه أو سمعه فعلاجه بمعرفة أنه بالغيبة محبط أجر غضبه لله وتعرض لمقته ، اذ كان الواجب ان يظهر غضبه بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء .

وتطبيقا على قاعدة المضادة نرى أن حاصل رياضة الاسباب المهيجة للغضب عند الغزالى يرجع الى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر من قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أضداد هامدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس ، فاذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضا من الغضب الذى يتولد منها ، وقد ظن الظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج ، وكلا الرأيين عند الغزالى ضعيف ، ويعلل ذلك بأن ما يحبه الانسان ينقسم الى ثلاثة

أقسام : (١) ماهو ضرورة فى حق الكافة كالمأكل والمشرب والمسكن والملبس وصحة البدن ، فلا يخلو الانسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها . (بل ان غضبه لضرورة قوته وحاجته التى لابد له منها فى دينه ، فانما غضب لله) . والرياضة فى هذا القسم ليست لينعدم غيظ القلب ، ولكن لكى يقدر على أن لا يطيع الغضب ولا يستعمله فى الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل ، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكليف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير خلقا راسخا ، فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن (إلا إذا كان القلب مشغولا بضرورى أهم منه ، فالشعبى مثلا لم يغضب على من سبه لاشتغال قلبه بمهمات دينه ، فقال له أن كنت صادقا فغفر الله لى ، وان كنت كاذبا فغفر الله لك) وكل مايمكن كسر شهوته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ فى الباطن وينتهى ضعفه الى أن لا يظهر أثر فى الوجه ولكن ذلك شديد جداً . (٢) ماليس ضروريا لاحد من الخلق (كالجاه والمال

الكثير والصيت وكل ماصار محبوبا بالعادة والجهل بمقاصد الأمور) ويمكن التوصل بالرياضة الى الانفكاك عن الغضب على هذا القسم إذ يمكن اخراج حبه من القلب ؛ وذلك بان يعلم الانسان أن الدنيا معبر يعبر عليها ويتزود منها قدر الضرورة فيزهد فيها ويمحو حبها عن قلبه ، (وأنه كلما كانت الحاجات والشهوات أكثر كان صاحبها أحط رتبة وأنقص) ، والرياضة فى هذا تنتهى الى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه (وهو أهون) ، وقد تنتهى الى قمع أصل الغضب (وهو نادر جدا) اذ يندفع الغضب بغلبة التوحيد أو حبه لله (اذ يعلم أن الله يحب منه أن لايغتاظ) ويندفع أيضا بحسن الظن بالله وهو أن يرى أن الكل من الله ، والله لايقدر الا مافيه الخيرة وربما تكون الخيرة فى مرضه وجوعه وجرحه وقتله فلا يغضب ؛ وهذا الوجه غير محال ، ولكن غلبة التوحيد الى هذا الحد تغلب فى أحوال مختلفة ولا تدوم ، ويرجع القلب الى الالتفات الى الوسائط رجوعا طبيعيا لايندفع عنه ، وقد كان النبي الكريم يغضب حتى

تحمر وجنتاه ، ولكن كان الغضب لايخرجه عن الحق (أى كان يغضب لله على الخلق) (٣) مايكون ضروريا ومحبوبا فى حق بعض الناس دون البعض لانه وسيلة الى الضرورى والمحبوب (كالكتاب مثلا فى حق العالم فانه مضطر اليه فيغضب على من يحرقه ويغرقه) ، وماصار ضروريا فى حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه ، فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه فى الباطن حتى لايشتد الألم بالصبر عليه.

١٥٣ — وقد ذكر الغزالى أيضا أمثلة كثيرة فى عدة مواضع للعلاج بمعجون العلم والعمل ، فيرى مثلا معالجة الغضب علميا بستة أمور : أن يتفكر فى فضل كظم الغيظ والتحلم (بتكليف الحلم) والعفو والحلم والاحتمال فيرغب فى ثوابه فيمنعه عن التشفى والانتقام وينطفىء عنه غيظه ، وأن يخوف نفسه عقاب الله بان يمضى عليه غضبه يوم القيامة أحوج مايكون الى العقوبة ، وان يحذرها عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو فى الدنيا لمقابلته والسعى

فى هدم أغراضه والشماتة بمصائبه . وان يتفكر فى قبح صورته عنده (بان يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب) ، وان يكظم غيظه لله (مهما كان سبب الانتقام) ليعظم عنده ، وان يعلم أنه يوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه لانه بغضبه اجريان الشىء على غير وفق مراده كأنه يقول مرادى أولى من مراد الله . وأما العمل فان يقول بلسانه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فان لم يزل بذلك فليجلس أن كان قائما وليضطجع ان كان جالسا وليقرب من الارض التى منها خلق (لان سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة) فان لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل .

ويرى أيضا أن علاج حب الجاه مركب من علم وعمل . أما العلم فهو أن يعلم أن كمال القدرة على اشخاص الناس وعلى قلوبهم (الذى لاجله أحب الجاه) لاينبغى أن يترك به الدين الذى هو الحياة الابدية (لانه يستهدف للحسد وقصده بالايذاء وخوفه على الدوام على جاهه واحترازه من ان

تتغير منزلته فى القلوب المترددة بين الاقبال والاعراض ، فضلا عن أنه أن سلم وصفا فآخره الموت ويفوت الكثير فى الآخرة) . وأما من حيث العمل فبالاعتزال ومباشرة أفعال يلام عليها حتى يفارقه الطمع ويأنس برد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق، وهذا هو مذهب الملامتية اذ اقتحموا الفواحش فى صورتها ليسقطوا انفسهم من أعين الناس ، وهو غير جائز لمن يقتدى به ، وأما الذى لا يقتدى به فلا يجوز له ان يقدم على محظور لاجل ذلك بل له ان يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس.

ويعالج الغزالى أيضا الرياء بالعلم (بقطع الرغبة فى الجاه بان يعلم ما فيه من المضرة بما يحيط عليه من ثواب الاعمال والمنزلة عند الله وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه فى الحال من التوفيق وما يتعرض له فى الآخرة من العقاب العظيم ، فيقبل على الله قلبه) وبالعمل (بان يعود نفسه اخفاء العبادات حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عباداته ولا تنازعه النفس الى طلب غير الله) فيشتغل بذكر الله ، فاذا خطر الشيطان له - بمعرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم - تنبه له

واشتغل بدفعه بما اعتقده من ان ذم الناس لا يزيده شيئا مالم يكتبه عليه الله ؛ وان الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والاعطاء .

ويقول انه يجب على التائب اذا جرى عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبة او عن إلمام بحكم الاتفاق أن يتوب ويندم ؛ فان لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة ، فلاينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ويمحوها (بأن تكون الحسنة في محل السيئة فيما يتعلق بأسبابها) اما بالقلب بالتضرع الى الله في سؤال المغفرة والعفو واضمار الخيرات والعزم على الطاعات ، واما باللسان بالاعتراف بالظلم والاستغفار ليمحو الذنب أو يخففه (وخيره ما كان بالقلب لاباللسان فقط) ، واما بالجوارح بالصدقات وأنواع العبادات . ويرى الغزالى عند كلامه عن الصبر أنه هو والعلم علاج الاصرار ؛ ويقول بلزوم تقوية باعث الدين على باعث الشهوة (بإطماعه في الثمرات الدينية للمجاهدة ، وتعويده مصارعة باعث الهوى ،

وأن يكلف نفسه فى أعمـاله أفعالا تخالف مااعتاده مراعيا فى ذلك التلطف والتـدريج ، فيترك البعض ويسلى نفسه بالبعض ، ثم اذاقنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض الى أن يقنع بالبقيـة ، وهكذا يفعل شيئا فشيئا الى أن يقمع تلك الصفات التى رسخت فيه) ، ولتضعيف باعث شهوة الوقاع مثلا يرى الغزالى قطع مادة قوتها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الافطار على طعام قليـل فى نفسه ضعيف فى جنسه والاحـتراز عن اللحم ، ثم يقطع أسبابه المهيجة له فى الحال بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة (اذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة) والفرار منها بالكلية ، ثم بتسلية نفسه بالمباح من الجنس الذى يشتهيه (وذلك بالنكاح) .

١٥٣ — واجب مريض النفس : ويقول الغزالى ان مريض الاخلاق يحتاج الى التصديق بأمور : أولهـا الايمان بأن للسعادة فى الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هـو المعصية (كما ان للمرض والصحة اسبابا يتوصل اليها بالاختيار على مارتبه

مسبب الاسباب) ، وثانيها العلم بصدق الرسول والايمان بما جاء به (كما انه لابد ان يعتقد المريض فى طبيب معين انه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه) ، وثالثها الاصغاء الى آيات التحذير من اتباع الهوى وارتكاب الذنوب وانها يتعجل فى الدنيا شؤمها فى غالب الأمر حتى انه قد يضيق على العبد رزقه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه اعداؤه ويفقد المناجاة ويسود وجه قلبه بالخوض فى الذنوب (اذ لابد ان يصغى المريض الى الطبيب فيما يحذره عنه من الاسباب المضرة على الجملة حتى تكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء) ، ورابعها العلم بذنبه المخصوص وبالذنوب جميعا وآفاتها وكيفية التوصل الى الصبر عنها وتكفير ما سبق منها (اذ يجب على المريض ان يصغى الى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه فى نفسه الاحتماء عنه ليعرفه اولا تفصيل مايضره من افعاله واحواله ومأكوله ومشروبه ، وليبين له العلاج الخاص لهذه العلة الخاصة) . ولذا يرى الغزالى فى موضع آخر ان الطريق الذى يعرف به الانسان عيوب نفسه أحد أربعة طرق : أن يحكم فى نفسه استاذا بصيرا بعيوب النفس ويتبع اشارته فى مجاهدته ، أو أن يطلب صديقا

صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه لينبهه على ما كره من أخلاقه وافعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ، أو أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه (فان عين السخط تبدى المساويا) أو أن يخالط الناس فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه .

١٥٤ — *ماتؤاخذ به ومانعفى منه* : ويرى الغزالى ان أخص الآثار الحاصلة فى القلب هو الخواطر (أى ادراكاته علوما اما على سبيل التجدد بالفكر ، واما على سبيل التذكر اذ تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها) ، فتحرك — لانها مبدأ الافعال — الارادات والرغبات فالعزم فالنية فالاعضاء ، وتنقسم هذه الخواطر الى الهام محمود يدعو للخير سببه الملك ، والى وسواس مذموم يدعو الى الشر سببه الشيطان ، فيتجاذب القلب بين التوفيق والاغواء ، وهو بأصل الفطرة صالح لقبول آثار كل منهما صلاحا متساويا (وانما يترجح أحد الجانبين باتباع الشهوات أو الاعراض عنها) ، ولكن لانه لايخلو عن صفات البشرية المتشعبة عن الهوى ، لم يخل عن أن يكون للشيطان فيه جولان

بالوسوسة ؛ ولذا كانت حمايته عنها فرض عين على كل عبد مكلف .

ويقول الغزالى ان للقلب أربع أحوال قبل العمل بالجارحة : الخاطر فالميل فالاعتقاد فالهم ؛ فالخاطر كالوخطر له مثلا صورة امرأة أى حدثته نفسه بها ، فاذا هاجت الرغبة الى النظر تبعا لحركة الشهوة التى فى الطبع كان الميل ، وهى أمور اضطرارية لاتدخل تحت الاختيار تهجس فى النفس ولايتبعها عزم على الفعل ؛ ولذا يرى الغزالى أنه لايؤاخذ به ؛ فاذا حكم القلب واعتقد أنه ينبغى أن ينظر اليها (مالم يمنعه حياء أو خوف أو تأمل من الالتفات) فيؤاخذ عنده بالاختيارى منه ولايؤاخذ بالاضطرارى ، فاذا هم بالفعل بتصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه ، فيرى الغزالى أنه مؤاخذ به ، إلا أنه ان لم يفعل (اذ قد ينعدم بعد الجزم فيترك العمل) فان كان قد تركه خوفا من الله تعالى وندما على همه كتبت له حسنة (لانه رجح جهده فى الامتناع وهمه به على همه بالفعل) ؛ وأن تعوق الفعل بعائق

أو تركه بعذر عارض لا خوفا من الله تعالى ، كتبت عليه سيئة (لأن همه فعل من القلب اختيارى) ، وبذا وفق الغزالى بين مايدل على المؤاخذة كقوله تعالى « ان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه ، يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » وقوله « ان السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا » ، وما يدل على العفو كقول النبي الكريم « عفى عن أمتي ماحدثت به نفوسها ، مالم تتكلم به أو تعمل به » .

١٥٥ – الخوف أفضل أم الرجاء ؟ : ويقول الغزالى أن فضل الخوف والرجاء بحسب داء القلب الموجود ، فان كان الغالب على القلب داء الامن من مكر الله تعالى والاغترار به وعصيان أمره فالخوف أفضل ، وان كان الاغلب هو القنوط من رحمة الله (فترك العبادة أو أسرف فى المواظبة عليها حتى أضر بنفسه وأهله) فالرجاء أفضل (وكذلك أن نظر الى المطلع لأن الرجاء مستقى من بحر الرحمة والخوف من بحر الغضب) ، ولأن المعاصى والاغترار على الخلق

أغلب : يجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل : وينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح ـ لأنه يراد لغيره ـ ، فالتقي لذي ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه فالاصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه . أما عند الموت فالاصلح غلبة الرجاء وحسن الظن (لان الخوف يراد للعمل وقد انقضى وقته . لان المشرف على الموت لايقدر عليه ثم لايطيق أسباب الخوف فان ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته) : « وأما روح الرجاء فانه يقوى قلبه ويحبب اليه ربه الذي اليه رجاؤه : ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا الا محبا لله تعالى ليكون محبا للقاء الله : فان من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » وغاية السعادة أن يموت محبا لله تعالى .

ويقول الغزالي « أن حال الرجاء يغلب باستقراء الآيات والاخبار والآثار وبالاعتبار بان العناية الالهية اذا لم تقصر عن عباده حتى لم يرض لهم أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة ، كيف يرضى بانسياقهم الى الهلاك المؤبد ، بل اذا نظر الانسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيء له

أسباب السعادة فى الدنيا حتى أنه ينكر الانتقال من الدنيا بالموت وان أخبر بانه لايعذب بعد الموت أبدا مثلا أولا يحشر أصلا ؛ فليست كراهتهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة ؛ وانما الذى يتمنى الموت نادر ثم لايتمناه الا فى حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة ؛ فاذا كان حال أكثر الخلق الغالب عليه الخير والسلامة ؛ فسنة الله لاتجد لها تبديلا ؛ فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون لان مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم ، ومن الاعتبار أيضا النظر فى حكمة الشريعة وسننها فى مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها ، وليذكر قوله تعالى « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لاتقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا أنه هو الغفور الرحيم » .

١٥٦ — خاتمة البحث : وقبل أن أختم حديث الغزالى الروحى يجب على أن أذكر انى أردت به اعطاء القارىء فكرة كاملة مختصرة للثقافة الروحية فى كتابه « احياء علوم الدين » ، لاوفق بين دفع القصور والتقصير فى اهمال قراءته

obeikandi.com

على كبر قيمته وبين توفير الوقت على الراغبين فيه ولا كبر حجمه وصعوبته ؛ وعنيت كل العناية بالمحافظة على معانيه حتى حافظت فى كثير من الأحيان على نفس لفظه ولم أخرج عن هذا الا فيما كان جريا على نهج البحث أو سبيل الاستنتاج، واجتهدت ـ لكى لا أخرج عن الغرض الذى أردته ـ فى أن أجرد الحديث عن آرائى الشخصية فوفقت لهذا الى حد كبير ، حتى انى جذبت عنان يراعى وفكرى فلم يخط فى هذا الكتاب الا بضع خطى قليلة ظاهرة أردت بها ايضاح فكرة غامضة أو التحدث عن وجهة نظرى فى موضوع من الموضوعات التى رأيت وجوب عرضها لتكون مكملة أو موضحة للحاجات الروحية والاجتماعية فى هذا العصر مع تمشيها مع روح الاسلام ومع المبادىء الروحية للغزالى نفسه .

واللذة الروحية التى أردنا أن يشعر كل انسان بها هى المعرفة ، والغزالى قد أنار لنا الطريق بما حدثنا ، ونستطيع أن نوجز الحديث عن هذه اللذة بأن نذكر أنها لذة واحدة متشعبة الى عدة فروع ، وهى لذة معرفة الله ، فمن حديثه

عرفنا معرفة صادقة لما يجب أن نعرفه عن الله ، وعرفنا معنى توحيده والفناء فى هذا التوحيد فى التوكل عليه وحد هذا التوكل الذى أراده الله لعباده ، وعرفنا حب العبد لله ومعنى حب الله للعبد ومظاهر هذا الحب ، وعرفنا الأنواع المختلفة التى تعبدنا الله بها وما يريد سبحانه من تقوية قلوبنا وتصفيتها وتغذية أرواحنا وتنميتها بالايمان ، وعرفنا كيف نخلص لله ونراقبه ونخافه ونرجوه واذا أذنبنا ماسبيل التوبة للرجوع اليه ، وفى حياتنا كيف نفكر فى خلقه ، وعند موتنا ماذا يجب ان نستحضره من الايمان به وحبه.

فاذا ماشعرنا بهذه اللذة شعرنا بلذة قوة الايمان ولذة العمل على نجاة نفوسنا وتطهيرها بحب الجلال والخير والجمال، وتغذية أرواحنا فى الصلات المختلفة بين الناس وما يجب علينا أن لا نبخسهم أشياءهم وأن لا نتعرض لايذائهم بسوء ظن أو حقد أو حسد أو فعل شر لهم ، فنشعر بلذة حب الناس ولذة العطف عليهم ولذة الاتصال القلبى بمشاركتهم فى الفرح بسرائهم والألم لضرائهم، فاذا وصلنا الى هذه الدرجة فنحن

لابد واصلون الى اللذة الروحية بفهم معنى الجمـــال ومداه وأنواعه ، وبالصلة الروحية بين صديق نؤاخيه أو زوجـة نرتبط برباط مقدس شرعى بها ، أو قريب تربط بيننا لحمة النسب ، أو وطنى تربط رابطة الدم ، أو أنسان تربط بيننا وبينه رابطـة الانسانية وكونه عبـد الله خلقـه كما خلقنا وله قلب وروح وجسم كما لنا ، ويجب عليه أن يقوى روحه ويسخر بدنه وقلبه لخدمة هذه الروح والسمو بها كما يجب علينا . واذا فهم الانسان هذا واستفتى قلبـــه المؤمن وعمل بما يوحيه اليه ضمير الايمان وبصيرة العقيدة الخالصة القوية ولوامع الحق فى القلوب : رغب فى تقوية هـذه اللذات فلجأ لفقـه النفوس فراض نفسه عـلى حب الخير وعمل على أن يخلص صلته بربه من الشوائب وصلته بالناس من الظلم وصلتـه بنفسه من ايذائها . وبذا تلخص روحانية الغزالى فى ايمان الانسان بكل شىء فى الحياة ، بان يكون قويا فى حبه لربه (لانه أصل نعمة الحياة) وللناس (لانهم صنع الله) ولصحبه (لانهم قطعة من روحـه) ،

ومظهر حبه لله الايمان القوى والعبادة والتوكل والتوحيد ،
والحب والاخلاص والمراقبة والتوبة والرجاء والخوف ،
ومظهر حبه للناس العطف عليهم والأمر بالمعروف والنهى
عن المنكر والاحسان لهم وعدم ايذائهم وبذل الجهد ما أمكن
لخيرهم فى دينهم ودنياهم ، ومظهر حبه لاخوانه أن يعاملهم
كنفسه يحب لهم مايحب لها ويكره لهم مايكره لها ،
وحسب الانسان كمالا أن يزن الأمور بالقسطاس بأن
يكون عادلا فى معاملاته المادية ، رحيما فى معاملاته المعنوية ،
مخلصا فى معاملاته الروحية ، وحسبنا أن نصل بالقارىء
الى هذه الدرجة من الرقى الروحى ، والسلام ؟

محمود على قراعة

المحامي

غفر الله له ووفقه للخير

فى ٦ مايو سنة ١٩٣٥

﴿ تم بحمد الله ومعونته وحسن تدبيره ﴾

الفهرس

الموضوع وبيانه برقم البند

ص ٢ الإهداء

ص ٣ المقدمة

ص ٤ ـ ٣٧ العلم : العلم غذاء
القلب ١ ؛ الشواهد العقلية
لفضله ٢ ؛ تقسيمه الى علم معاملة
وعلم مكاشفة ٣ ؛ تقسيمه الى
شرعى وغير شرعى ٤ ـ ٦ ؛
واجبات المتعلم ٧ ، مثال التعاون
فى المناظرة ٩ ، واجبات المعلم
٨ ـ ١٤ (ضربنا مثلا للصلة بين
المعلم والمتعلم فى دور التعليم المصرية
ب ٨ ص ١٨ و١٩)

ص ٣٨ ـ ٤٤ تقسيم البحث وتمهيده :

الموضوع وبيانه برقم البند

تقسيم الغزالى لكتابه وتقسيمنا
للبحث ب ١٥ ص ٣٨ و ٣٩)
معانى القلب والنفس والروح
١٦ ؛ جنود القلب وأمثلته مع
جنوده الباطنة ١٧ و ١٨ ؛ أسباب
خلو القلب عن العلوم ١٩ ؛
مراتب الايمان ٢٠

ص ٤٥ ـ ٢٨٠ الباب الاول
(مابينك وبين الله) : العلم بالله
وطرق معرفته ٢١ ـ ٢٤ ، معنى
كلمتى الشهادة وصفات الله
والفرق بين الاسلام والايمان
٢٥ و ٢٦ ؛ مراتب التوحيد

الموضوع وبيانه برقم البند

٢٧ ؛ التوكل على الله ومعناه
ودرجات قوته ٢٨ — ٣٠ ،
الطهارة ٣١ ، الصلاة وحضور
القلب فيها ٣٢ ـ ٣٤ ، الزكاة
وواجبات آخذها ومخرجها
٣٥و٣٦ ؛ صدقة التطوع ٣٧ ،
الصوم ٣٨ ، الحج ٣٩ ، تلاوة
القرآن وأعمال الباطن فيها ٤٠ ،
ذكر الله ودعاؤه وكيف يكون
٤١ ـ ٤٣ (رأينا في معنى الذكر ب
٤٣ ص ١٠١ ـ ١٠٣) ، أسباب
الحب عموما ومعني حب الله
ولذة معرفته والشوق اليه
والانس به ٤٤ ـ ٥٣ ، الرضى
بقضاء الله ٥٤ — ٥٥ ، معني

الموضوع وبيانه برقم البند

محاسبة النفس ومراقبة الله
٥٦ـ٥٨ ، معني النية ٥٩ ـ ٦١ ،
الأخلاص والصدق وشوب
الرياء ٦٢ ـ ٦٤ ، معني الفقر
والغنى وحقيقة الزهد وواجبات
الفقير ٦٥ ـ ٦٧ ، حقيقة الصبر
٦٨ ، شكر الله وكيف يجب
أن يكون ٦٩ و ٧٠ ، مراقبة الله
في اللسان ٧١ ، مراقبة الله في
الاكل والشرب ٧٢ ، الصفة
الاجتماعية للاكل ٧٣ ، مراقبة
الله في النكاح ٧٤ ، مراقبة الله
في التربية ٧٥ ، مراقبة الله في
المعاملات المادية مع الناس ٧٦ ـ
٨٢ ، مراقبة الله في العجب

obeikandi.com

الموضوع وبيانه برقم البند

٨٣ و ٨٤ : مراقبة الله فى الحسد
٨٥و٨٦ : مراقبة الله فى الكبرياء
٨٧و٨٨ : مراقبة الله فى الالفة
والصحبة ٨٩ ـ ٩٠ (رأينا فى
معاملة غير المسلمين ب ٩٠ ص
٢٠٦ ـ ٢١١) : مراقبة الله فى
السماع والوجد ٩١ ـ ٩٣ :
مراقبة الله فى الجاه ٩٤ : أسباب
المدح وكراهة الذم ٩٥ـ٩٧ :
مراقبة الله فى الاخلاص وعدم
الرياء ٩٨ ـ ١٠١ : فضيلة ستر
المعاصى ١٠٢ : هل يترك العمل
خوف الرياء ؟ ١٠٣ : مراقبة
الله فى التوبة ١٠٤ ـ ١٠٦ :
الصغائر والكبائر ١٠٧ : ماتكبر

الموضوع وبيانه برقم البند

به الصغيرة ١٠٨ : شروط صحة
التوبة ١٠٩ : مابه تمحى ظلمة
المعصية ١١٠ : طبقات التائبين
١١١ : سبب الذنوب وعلاجها
١١٢ : مراقبة الله فى الرجاء
والخوف واقسام المخاوف ونوعا
الخوف وسوء الخاتمة ١١٣ ـ
١١٨ : معنى الفكر ومجاريه فى
خلق الله ١١٩ ـ ١٢٢ : ذكر
الموت وألمه ومعناه ١٢٣ ـ
١٢٥ : ذكر الجنة ١٢٦
ص ٢٨١ـ٣٢٨ : الباب الثانى
(مابينك وبين الناس) : فوائد
كل من المخالطة والعزلة ومقياس
الحكم بينهما ١٢٧ـ١٢٩ : آفات

openkanal.com

الموضوع وبيانه برقم البند

الانسان من فحش وسب وبذاءة
ولعن ومزاح وافشاء سر
وكذب وعد والكذب فى القول
واليمين والغيبة والسعاية وكون
الانسان ذا لسانين والمدح ١٣٠
الغضب وأقسام الناس فيه ١٣١
والقدر الذى يجوز التشفى به من
الكلام ١٣٢ ؛ الكبر وعلاماته
ومعالجته ١٣٣ و١٣٤ ؛ الحقد
ونتائجه ١٣٥ ؛ الحسد ومراتبه
واسبابه ١٣٦ - ١٣٨ ، حقوق
الناس عموما ١٣٩ ، واجبات
الاكل فى اجتماع أو مشاركة ١٤٠ ،
آداب تقديم الطعام الى الزائرين
١٤١ ؛ آداب الضيافة ١٤٢ ؛ آداب
المعاشرة الزوجية ١٤٣ و١٤٤

الموضوع وبيانه برقم البند

(رأينا فى رأى الغزالى فى العشرة
الزوجية ب ١٤٤ ص ٣١٨_٣٢٣)
حقوق الاخوة والصحبة ١٤٥ و
١٤٦ (رأينا فى حقوق الاخوة
التى رآها الغزالى ب ١٤٦ ص ٣٣٨
ص ٣٢٩ — ٣٦١ الباب الثالث :
(مابينك وبين نفسك) ، معنى
حسن الخلق ١٤٧ ، قبول
الاخلاق للتغير ١٤٨ ، سبب
حسن الخلق ١٤٩ ، تشبيه
مرض الاخلاق بمرض البدن
١٥٠ ، أمثلة لرياضة النفس ١٥١ و
١٥٢ ، واجب مريض النفس
١٥٣ ، ما نؤاخذ به وما نعفى
منه ١٥٤ ، الخوف أفضل أم
الرجاء ١٥٥ ، خاتمة البحث ١٥٦

obeikandi.com

الغلطات المطبعية

وقعت بعض غلطات مطبعية قليلة ظاهرة سنذكر صواب أهمها

ص	س	الصواب	ص	س	الصواب
٣	٢	صحبته	٧٢	٣	بالتمييز
٥	٥	ـ انه . . . هو ـ		٦	حركاته
	٧	ينقسم	٧٥	١٥	قدر
٧	١٣	الغرض	٨٠	٨	الغزالي
٨	١	الطب	٨٣	٩	صلاته
	٢	بشرعية		١١	مريد
١٢	٥	يأتي		١٣	تطهير
٢١	١٠	الحب المجرد .. المقصود	٨٤	١	قلوب
٤٢	٣	الاستعانة	٩١	٦	وليخش
	٤	يقينا	١٠١	٩	الله
٤٤	١١	ويرى	١٠٢	١٣	خيرا
٥١	١٥	لايماثل	١٠٤	٤	اذ لايحب
٦٠	٤	و « من يحيي	١١٥	٨	الرؤية
٦١	١٠	يزيد		١٤	بكدورات
٦٤	١	ينكشف	١١٦	١٣	والذين
٦٧	٩	المنزلتين	١١٩	٢	وبقي
	١٠	المعنى	١٢٠	٩	الذنب

ص	س	الصواب
١٢٥	١١	يكره من وجه
١٥١	١٥	لطالبه
١٥٦	٨	أنعم
١٦٤	٧	مصيبه
١٦٧	٧	فلرشاقة
١٧١	١٤	تحذف كليه
		« من »
	١٦	يختم
١٧٢	١١	انه يغالى
١٧٥	٦	زنا العين
١٧٩	١٤	بعض
١٨٢	٧	العاقدين
١٩٠	٩	ان كان
٢١٠	١٣	فيها
٢٢١	١٢	ولكن كونه
٢٣١	١	الوجه
٢٣٥	١٠	ويعنى . . .
		ولا يستفزه
٢٣٧	١٢	تتلافى

ص	س	الصواب
٢٥٦	٨	طاعاته
٢٥٧	١٥	الشك
٢٥٩	١	ومن
٢٦١	٨	تعرض
٢٨٤	٧	الخليط
٢٩٨	١٠	غيره
٣٠٧	١	الرجل
٣٢٢	١٥	ليفهمها

obeikandl.com